د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق

الكويت

2007



د. أحمد خالد توفيق

لم يترك لنا الدكتور
(محفوظ) إلا هذا
الصندوق في قبو
داره .. الصندوق
يحوي مذكرات
وملاحظات عن تلك
القصص الغريبة التي
مرت به في حياته..
تعالوا نفتح
الصندوق الآن..
تعالوا نشعل شمعة
تبدد ظلام القبو
ونطالع واحدة من
تلك القصص ..



DIAMOND BOOKS
إصدارات دايموند

قبل أن نفتح الصندوق...

«الحياة صندوق من الشيكولاته .. لا تعرف أبدًا ما قد تظفر به».. هذه هي العبارة المحورية الساخرة في فيلم (فورست جامب)، والتي تلخص أهم مخاوف طفولتي .. الصندوق المغلق .. كم هو ساحر!.. كم هو غامض!.. كم هو مخيف!... ماذا ينتظرنا لو فتحنا الصندوق؟.. تتكرر هذه التيمة كثيرًا في قصص ألف ليلة وليلة وفي الأدب عامة .. حتى شكسبير نفسه لم يفلت من سحر الصندوق المغلق في مسرحيته (تاجر البندقية)...

كل شيء قد يوجد في الصندوق المغلق أو لا يوجد .. كنز من الياقوت والعقيق .. أسرار القنبلة الذرية .. جثة متحللة .. يد مومياء .. قلادة (فلاد) .. صور مصفرة حال لونها .. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة .. صرصور .. عنكبوت .. لا شيء ..

لهذا - عندما كتبت هذه المجموعة من القصص القصيرة - اخترت لها صيغة الصندوق المغلق .. لقد توفي الدكتور (محفوظ) أستاذ الأدب الإنجليزي الحكيم واسع التجارب، فلم يترك - كما هي عادة هؤلاء المحترمين في كل مكان وزمان - أي مال لأهله .. فقط ترك مجموعة من الأوراق البالية تحكي خبراته المرعبة مع عالم الميتافيزيقا .. الحكماء واسعو الخيال سوف يجدون ميراثًا مهمًا في الصندوق .. الأشخاص الطبيعيون سوف يتخلصون من هذه الأوراق في أقرب صندوق قمامة وهم يسبون ويلعنون الفقر والغباء معًا .

ماذا يوجد في الصندوق؟.. أردت في البداية ألا يوجد في الصندوق إلا مجموعة من القصص المثيرة أو المحركة للخيال، لكن وسواس المعلم الذي يغلبني أحيانًا قهرني، وجعلني أفضل أن أقدم مزيجًا من القصة والمقال التثقيفي القصير، وبهذا لا أشعر أنني أضعت وقت القارئ في مجرد خيالات ابتدعتها .. في كل مرة هناك كلام عن ظاهرة غريبة، ثم تأخذ الأحداث مجرى قصة. إن مقاييس القصة القصيرة لا تنطبق بدقة على هذه المجموعة، لكنها نوع خاص من الفن ربما أطلق عليه اسم (مقرواية) أو (حقال) أو أي اسم يجمع بين القصة والمقال معًا ...

ماذا نعرف عن عالم ما وراء الطبيعة؟.. لا شيء في الواقع .. كل هذا قد يكون حقيقيًا وكل هذا قد يكون وهمًا من عقول هستيرية.. سنموت دون أن نعرف الإجابة، وتلك هي المأساة الحقيقية .. وقد حرصت في كل هذه القصص على أن تبقى علامة الاستفهام تحوم حولنا في النهاية .. ربما نعم .. ربما لا ...

لقد مات د. (محفوظ) دون أن يعرف إلا أنه جابه أشياء غريبة حقًا .. نحن كذلك سنموت دون أن نعرف، ولسوف تشعر بهذا الشعور مضخمًا قبل الأوان بعد قراءة هذه المجموعة من الأوراق .. عندها سوف تغلق عينيك وتجيب عن السؤال المهم: هل استمتعت بالقراءة؟.. هل حركت هذه القصص خيالك؟.. هل أخذتك من يدك إلى دهاليز مظلمة لم تجتزها من قبل؟....

لو كانت الإجابة (نعم) فأنا قد نجحت، وهذا هو ما يهم في الوقت الحالي ...

الآن تعالوا نشعل شمعة تبدد ظلام القبو ..

تعالوا نفتح الصندوق معًا ...

تأثير الفراشة

يطلق عليه العلماء اسم (تأثير الفراشة) نسبة لقصة (راي برادبوري) الشهيرة عن الرجل الذي عاد إلى الماضي ليقتل الديناصورات.. لقد تم ترتيب كل شيء والديناصورات التي سيقتلها هي فقط تلك التي تم وضع علامة مضيئة عليها لأن هذه ساعة موتها على كل حال؛ أي أن قتلها لن يحدث أي تغيير في مجرى الزمن.. هكذا عاد الرجل وراح يتسلى بإطلاق الليزر على تلك الوحوش، لكن حدث خطأ ما جعله يطأ فراشة وسط الأوحال، وبدا هذا تافهًا.. حينما يعود لزمننا يكتشف أن كل شيء تغير وحتى شكل المباني ولون السماء.. إن الفراشة التي سحقها ربما كانت ستتطور إلى شيء أكبر.. وتراكمت التغيرات على مدى ملايين السنين لتصير هائلة..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) وهناك فيلم سينمائي شهير بذات الاسم، فلا تعتقدوا أنني سرقت قصته من فضلكم.. إن مصطلح (تأثير الفراشة) لم يحتكره أحد..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) لكنه يتمشى مع تعبيرنا العربي الخالد (ومعظم النار من مستصغر الشرر)..

****

كنت منطلقًا بسيارتي على الطريق السريع.. تعرفون أنني أسوأ سائق في العالم ربما بسبب ضعف البصر أو لأنني تعلمت القيادة في سن يفضل الناس أن يموتوا فيها.. إنه الليل وصوت أم كلثوم ينبعث من قناة إذاعية مجهولة.. هذا يجعل وزن جفنيك طنًا... هكذا نمت.. ليس بوسعك أن تقسم أنني نمت لكني أعرف أن هذا حدث لجزء من الثانية ثم فتحت عيني على الجحيم..

فتحت عيني لأجد أن الطريق زلق.. زلق اكثر من اللازم.. وضغطت الفرملة فقط لأكتشف ان هذا مستحيل.. السيارة تواصل طريقها بحماس مشبوب... رحت أضغط وأرفع قدمي.. ذلك العمل الذي يصفه الميكانيكية بأنه (المكاركة).. لكن (المكاركة) كالعادة تفلح معهم ولا تفلح معي..

وداعًا د. (محفوظ).. كانت معرفتك لطيفة وكان وجهك في مرآتي يطمئنني على أن الكون بخير..

السيارة تنقلب مرة.. ثم مرة.. ثم وجدت أنها ملقاة على جانبها الأيمن، وأنني أتحسس الباب وأنا أشعر أن هناك من يدق مخي بيد (الهاون)..

هناك شخص متحمس ما فتح الباب وشدني للخارج.. وفي النهاية وجدت انني ملقى تحت جذع شجرة وأن حوالي خمسة اشخاص يسكبون على وجهي الماء.. ربما يبصقون أيضًا..

قال لي أحدهم:

«حصل خير والحمدلله.. لقد كان الطريق مبتلاً.. سيارات المطافئ أغرقت كل شيء والمشكلة هي ان حرائق البنزين صعبة..»

رحت أحاول استجماع ما حدث.. مطافئ وحرائق بنزين؟.... لم أر شيئًا من هذا.. ثم نهضت.. إنني سليم لم يتحطم شيء.. فقط هي الصدمة العصبية لا أكثر.. أعتقد أن أنفي نزف بغزارة لكن هذه الأشياء لا تستمر.. ونظرت لبعيد.. بالفعل هناك محطة بنزين عند الأفق.. ومن الضوء الراقص أقدر أن هناك حريقًا.. سيارات إطفاء.. فوضى عارمة.. صراخ.. أنظر للوراء فأرى كافتيريا وصيدلية عند ذلك الجسر الذي يستخدمه من يعبرون الطريق السريع راجلين..

مشيت مترنحًا إلى حيث كان الزحام في محطة البنزين..

القصة واضحة... توجد سيارة لوري عملاقة تقف وسط المحطة والدخان ينبعث منها لعنان السماء.. واضح ان جهود السيطرة بدأت تفلح، لكن النتيجة كانت فوضى عارمة.. الطريق كله زلق مبتل والدخان يجعل من الصعب أن ترى يدك.. وهناك عدد من المارة المتطوعين ورجال الشرطة يقفون حاملين الكشافات ليجعلوا السيارات القادمة على الطريق السريع تهدئ سرعتها.. طبعًا هذه الأساليب تنجح مع الجميع ما عداي.. دنوت أكثر وبرغم الفوضى العامة وضعت يدي على كتف أحد عمال محطة البنزين وسألته عما حدث..

كان شابًا أسمر مذعورًا قال وهو يجفف عرقه ويسعل من فرط الدخان:

«السيارة اللوري كانت مشتعلة.. كانت محملة بأجولة القطن.. وقد وثب سائقها منها هاربًا.. عندها واصلت طريقها لتقتحم المحطة.. لولا رحمة الله لتحولنا إلى بخار..»



ثم اشار إلى رجل يقف وسط الزحام وقال:

-«هو ذلك الأحمق.. لن يتركوه»

وعلى بعد خطوات وجدت السائق الباكي ممزق الثياب متورم الوجه من كثرة الضرب، يقول لضابط متشكك متحمس:

-«أقسم بالله يا باشا.. لم اعرف كيف حدث هذا.. فقط نظرت في المرآة فوجدت ان حمولتي كلها تحترق.. هكذا وثبت من السيارة ولم أعرف أنها ستدخل المحطة.. لم أفكر وقتها إلا في النجاة..»

هنا تدخل رجل قصير القامة يضع عوينات سميكة ليقول:

-«الحق ما قال يا حضرة الضابط.. لقد مرت سيارته تحت الجسر هناك.. أنا كنت في سيارتي وراءه ورأيت المشهد.. رأيت رجلاً يقف فوق الجسر يلقي بلفافة تبغ مشتعلة... ثم اشتعلت النيران في القطن بسرعة وساعد الهواء على ذلك.. حتى لما بلغ هذا الموضع كانت حمولته كلها تحترق.. لقد أصيب المسكين بالذعر ووثب من السيارة غير مقدر خطورة الأمر..»

قال الضابط في غيظ:

-«ومن المخبول الذي يلقي لفافة تبغ على أجولة قطن؟»

-«ومن الذي لا يفعل ذلك؟... إن الاستهتار هو الموضة هذه الأيام..»

بالفعل من العسير اليوم أن تجد ذلك الرجل التقي الحكيم الذي يرى سيارة لوري محملة بالقطن فلا يلقي لفافة تبغ على حمولتها..لو قابلت هذا الرجل يا ابنتي العزيزة فلا تتركيه للأبد.. إن القصة قد انتهت وهي موجعة أليمة، وهذه الأجسام المتفحمة الواقفة وسط الدخان هي نصب تذكارية للاستهتار.. لكن لنحمد الله على انه لا توجد جثث..

نهضت مفكرًا في سيارتي البائسة.. لابد من إعادتها إلى وضعها الطبيعي فهل تتحرك عندئذ؟.. ما مدى ما أصابها من دمار؟.. تمكنت مع بعض المتطوعين من تقويمها وأدرت المحرك فسرني أنه ما زال يعمل.. حتى ام كلثوم لم تنه أغنيتها بعد.. هناك أشياء طيبة في هذا العالم برغم كل شيء.. هكذا انطلقت بسرعة السلحفاة أبتعد عن المشهد..

مشيت بسيارتي بضعة أمتار حتى بلغت الجسر العرضي الذي



يصعد له من أراد عبور الطريق السريع .. وهنا شعرت بأنني بحاجة إلى قدح قهوة قبل ان اواصل رحلتي الرهيبة.. لا مزيد من النوم خلف عجلة القيادة..هكذا دخلت الكافتيريا شبه الخالية الغافية تحت أقدام الجسر، وطلبت من النادل قهوة سوداء مركزة.. رأى حالي فأحضر لي منشفة متسخة مبتلة أزيل بها الدم عن صدر قميصي، وسألني عما إذا كنت قد أصبت في حادث الحريق فقلت له إنني أصبت لكن بشكل غير مباشر.. أصبت بسبب الماء لا النار.. فقال:

-«يقولون إن هناك رجلاً ألقى لفافة تبغ على اللوري..»

-«هذا ما يقال..»

قال النادل وهو ينظر حوله:

-«هذا صحيح على الأرجح.. بيني وبينك يا سيدي.. أنا رأيت ذلك الرجل..»

-«رأيته ؟»

-«نعم.. كانت هناك فتاة حسناء تجلس هنا .. في كافتيريا كهذه وساعة كهذه لابد أنها تنتظر رجلاً.. ظلت تنتظر طويلاً... ربما ساعة او اكثر.. قلت لنفسي من الأحمق الذي يعطي موعداً لهذه الفاتنة ثم لا يأتي قبلها بشهر؟.. ثم ظهر رجل طويل له شارب كث وجلس معها.. يبدو انهما كانا يتشاجران.. واضح أنه تأخر كثيراً على موعدها وهي لم تقبل أية أعذار.. وفي النهاية نهضت في عصبية وألقت بورقة مالية على المنضدة وغادرت المكان أما هو فظل جالساً بعض الوقت.. بعدها اشعل لفافة تبغ في عصبية.. انصرف فلم اعترض لأن الفتاة دفعت.. رأيته يصعد درجات الجسر ومن الواضح أنه وقف فوقه يرمق الطريق شارداً بعض الوقت..»

-«هل تعني أنه ؟»

-«ضع نفسك مكانه.. متضايق حزين.. ينهي لفافة التبغ ثم يتخلص منها غير عالم ان ما يمر تحته هو سيارة لوري محملة بالقطن..»

كانت القهوة سيئة.. كما احبها بالضبط.. هكذا نقدت الفتى ماله ودست قرصين من الأسبيرين في فمي كي أقضي على هذا الصداع، ثم شكرته واتجهت إلى الباب، وفجأة سمعته يصيح:

«هذا هو يا أستاذ»

هذا رجل طويل القامة شاحب الوجه له شارب كث.. لا يوجد كثيرون بهذه الأوصاف.. لقد دخل إلى الكافتيريا فهرع النادل نحوه وصاح وهو يمسك بتلابيبه:

«هل تعرف ما سببته؟»

بدا الرجل محاصرًا.. من الواضح أننا لن نتركه.. ولم يبذل أي جهد لينكر أو يكذب.. إنه يعرف بالضبط حدود الضرر الذي سببه عن غير عمد وهو يحترق ندمًا.. هكذا طلب أن نسمح له بالجلوس ثم بدأ يتكلم.. قال:

«لنقل إن المودة كانت تربط بيني وبين تلك الآنسة التي....»

قال النادل في نفاد صبر:

«كنت تحبها.. وكان هذا موعدًا بينكما.. دعك من الحذلقة فلسنا طفلي الأمس..»

نظر له الرجل وابتلع ريقه وقال لنا إنه كان ينتظر هذا الموعد منذ دهر، لكنه تأخر عنه.. وهكذا رحلت حبيبته.. لقد كان متجهًا إلى موعدها قبله بنصف ساعة، لكن تعطلت سيارته.. والسبب هو أن بنزينها نفد.. هكذا اضطر إلى المشي حتى يلحق بالموعد وقد بلغه متأخرًا ساعة كاملة.. الأمر الذي لن تغفره أية فتاة في العالم..

«لقد ظلت جالسة كل هذا الوقت كي تنفث غضبها في وتهينني وترحل..»

قلت له متمهلاً:

«ما دام الأمر مهمًا بالنسبة لك لهذا الحد فلماذا لم تستقل سيارة أجرة؟.. لا يبدو لي وقتًا مناسبًا لتتحلى بفضيلة الاقتصاد..»

قال في خجل:

«لأنني لم أكن أملك أجر التاكسي.. وبالطبع لم أكن أملك ما يكفي ثمن البنزين»

قلت مغتاظًا:

«إذن ماذا كنت تنوي عمله في موعدك؟.. تطلب كوبين من الماء؟.. من حسن حظك أنها غضبت وألقت بثمن ما شربته وإلا لقضيت ليلتك في المطبخ».

«لم يكن هذا ضمن خطتي.. كان معي ما يكفي من مال.. وخرجت من داري مفعمًا بالأمل، ثم شممت رائحة الشواء تنبعث من مطعم.. كان عندي متسع من الوقت وأنا لم آكل شيئًا طيلة اليوم من فرط الترقب واللهفة.. هكذا قررت أن أتناول وجبة سريعة.. لكني حينما دخلت المطعم لم أستطع التحكم في شهيتي وأكلت كثيرًا جدًا.. وفوجئت بأن ما معي من مال يكفي فاتورة الحساب بالضبط ويبقى جنيهان ربما يكفيان لنفقاتها.. هكذا دفعت وخرجت وأنا آمل أن يكون في السيارة ما يكفي من بنزين.. طبعًا اتضح ان أملي كاذب.. لقد تعطلت السيارة في أسوأ وقت.. هكذا قررت أن أمشي.. ويبدو لي أنني مشيت قرونًا..»

رحت أفكر في الأمر.. يا للعاشق الشره المفلس!.. فيما مضى كنت احسب أن الحب يملأ المعدة حتى بدأت أحسب المعدة والقلب يشتركان في تجويف واحد، لكن هذه القاعدة لا تنطبق هنا في مصر.. الحب يفتح الشهية، وقديمًا تكلم الساخر العظيم (أحمد رجب) عن (الغدة الأكلوغرامية) التي تفرز هرمون (الطفاسين) وقت اللقاء العاطفي..

تأثير الفراشة.. هذا هو ما يمكن ان نسمي به هذا التفاعل المتسلسل من الأحداث.. هو جاع فأكل كالمحرومين فنفد ماله.. هكذا نفد البنزين وتأخر عن موعده.. من ثم فقد حبيبته.. في غل ألقى بلفافة تبغه من فوق الجسر.. اشتعلت السيارة.. اقتحمت محطة البنزين.. انزلقت سيارتي على الأسفلت المبتل..

كل هذه السلسلة الجهنمية كان يمكن قطعها بتغيير واحد.. لو لم يأكل الكباب.. لو بقي بعض البنزين في السيارة.. لو لم تسقط اللفافة على اللوري.. لو لم يختر اللوري وجهته بدقة.. لو لم أنم أنا...

قلت له في شيء من سخرية لم يفهمها:

«لو لم تغلبك رائحة الكباب لما تهشم أنفي أنا.. هل تتصور هذا؟»

لكنه نظر لي في غباء ولم يستوعب حرفًا.. أعتقد أنه لم يسمع قط عن تأثير الفراشة.

أسرة لطيفة

الورقة الثانية التي خرجت من الصندوق تقول:

لأسباب يطول شرحها انعقدت صداقة بيني وبين آل (هالبروك)..

أنتم تعرفون أنني أدرس الأدب الإنجليزي، وكان المستر (إدوارد هالبروك) رب الأسرة يعمل مع إحدى الجامعات الخاصة المصرية للغرض ذاته.. أي أننا التقينا لنفس الأسباب التي يلتقي لها النجارون والسباكون وفنيو التبريد في كل مكان: المهنة الواحدة..

إذن يمكننا أن ندرك أن إقامتهم كانت دائمة في مصر، وكان لهم بيت لطيف في (المعادي) زرته مرة أو مرتين من قبل.. زوجته تدعى (مارثا) وهي امرأة في الثلاثين مهذبة بشوش، ولهم ابن في العاشرة من العمر له مزايا وعيوب أي صبي إنجليزي آخر..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أرتجف أحياناً حينما أتعامل معهم؟

****

تلقيت دعوة العشاء في يوم عيد ميلادي بالضبط.. أعني أنني تلقيتها عشية عيد ميلادي لأنني من مواليد الأول من نوفمبر.. ولما كنت لم أنجب وزوجتي مسافرة لزيارة والدتها المريضة، فقد خطر لي أنه من اللطيف أن ألبي هذه الدعوة.. من الجميل أن تجد من حولك بشراً في اليوم الذي ولدت فيه.. أما أن تجلس وحيداً في الدار تشاهد التلفزيون، فقد بدا لي هذا آخر شيء ممكن..

أقف أمام مدخل البيت في التاسعة مساءً، حيث تلك الحديقة المهندمة التي تفوح منها روائح نباتات غريبة.. إنه الخريف بكل ما يحمله من شجن.. ليل الخريف الذي يحمل رائحة ما لا أعرف ما هي، لكنها كانت تثير الرعب في نفسي أيام المدرسة.. مع الخريف تنتهي سلطة النهار الطويل لتبدأ سلطة الليل.. تنتهي سلطة اللهو لتبدأ سلطة المدرسة.. دعك من رائحة الجوافة التي تنبعث من كل شيء!.. لكم أمقتها!

قلت للمستر (هالبروك) وهو يفتح لي الباب:

«تصور أن عيد ميلادي غداً؟»

«أعرف.. ليس غداً بل بعد ثلاث ساعات»

ويتنحى لي لأدخل، وأنا أتساءل عن المناسبة التي ذكرت له عيد ميلادي فيها.. متى؟.. بصراحة لا أذكر.. لكني بالتأكيد أخبرته لأني لست من المشاهير ولا أعتقد أن تاريخ ميلادي مذكور في دوائر المعارف..

أمشي وسط الحديقة...

على باب الدار أرى تلك القرعة التي تم إحداث تجويف في موضع العينين والفم فيها، مع إشعال شمعة داخلها.. هذا المنظر المألوف.. (جاك في المصباح) كما يطلقون عليها.. لها مشهد موجس شيطاني كأنها عفريت يكشر عن أنيابه، مع تلك الضحكة الوقحة الشريرة الشبيهة بضحكات الجماجم..

نظرت له ضاحكاً فقال:

«لا تنس أن هذه الليلة بالذات هي (الهالوين).. إننا في الحادي والثلاثين من أكتوبر»

نسيت هذا طبعاً.. إن احتفالات الهالوين لا تمثل أي جزء من تراثنا طبعاً... لكنهم يحتفلون بها، ومن عاداتهم أن يضعوا القرع العسلي - اليقطين - على أبواب البيوت..

قال لي ضاحكاً:

«كنا معشر الأوروبيين نستعمل اللفت قديماً، لكن بعضنا نزح إلى الولايات المتحدة حيث لم يجد لفتاً ذا حجم مناسب.. لهذا اضطروا لاستعمال اليقطين.. إن هذه العادة إحياء لقصة قديمة عن شاب يدعى (جاك) منحه الشيطان مصباحاً في ثمرة لفت مفرغة..»

هززت رأسي موافقاً... على الأقل أنا أعرف عادات الغربيين في هذا الصدد... الأطفال يجولون حول البيت لابسين أقنعة مرعبة ويطرقون بابك قائلين: حلوى أم حيلة؟... بمعنى أن عليك أن تعطيهم كيساً مليئاً بالحلوى وإلا أزعجوك، وأطاروا النوم من عينك....

على الباب رحبت بي الزوجة مسز (هالبروك)، وكانت متأنقة بحق.. واقتادتني إلى داخل الشقة المريحة..



أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا لا أشعر براحة وأنا بينهم؟

****

العاشرة مساء..

لقد انتهى العشاء أو كاد ونحن نثرثر.. كانوا قد قضوا في مصر عاماً أو أقل ورأيهم هو الرأي المعتاد: الناس ودودون ظرفاء.. الطقس جميل.. لكنكم تضيعون الكثير من الوقت..

تعود الزوجة من المطبخ حاملة صحفة عليها بعض حلوى التفاح والبندق.. وتقول ضاحكة:

«طقوس الهالوين تقضي بالتهام البندق وحلوى التفاح.. إنها اللمسات التي أضافها الرومان إلى هذا العيد»

ضحكت بدوري وملأت كفي بالبندق، وبحثت عن كسارة في مكان ما.. هنا رأيت للمرة الأولى ذلك الوجه المطل علي حيث علق على الجدار.. إنه قناع أثري غريب الشكل..

رأى الزوج نظراتي فقال مفسراً:

«إنه يدعى (ساوين).... أحد أصنام قبائل الكلت.. إله الشمس عندهم إذا شئت الدقة.. أنت تعرف أننا قادمون من (ويلز)، وقد كان (ساوين) يُعبد هناك.. هذا القناع أصلي وأراه جميلاً..»

هززت رأسي في سخرية فقال:

«ما زلت متصلب الرأي.. ما زلت لا تصدق تلك القصص.. أنت تعتبرها خزعبلات، وأنا أرى أن منطقك هذا هش جداً.. تتحدث بثقة عن أشياء لا تفقه فيها حرفاً..»

«كلنا ذلك الرجل.. فأنت أيضاً لا تعرف الكثير عن هذه الأشياء»

كلاش ش!.. هذا طبعاً هو صوت تهشم البندقة..

قال لي (هالبروك) وأنا أملأ فمي بالبندق:

«إن الهالوين في الأصل عيد كانت تحتفل به قبائل الكلت.. لفظة هالوين هي اختصار لعبارة All Hallows ..even أي (الليلة التي تسبق يوم

كل القديسين).. وهي ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر.. لقد كانت عيداً كلتياً ثم قرر البابا (جريجوري الرابع) عام 834 ميلادية - بلمسة ذكية لا شك فيها - احتواء هذا العيد ليضمه إلى المسيحية.. وبهذا لم يظل عيداً وثنياً.. وصار مناسبة لتذكر القديسين..»

بعد دقائق سمعت من يزوم فنظرت للوراء مجفلاً..

كان هذا الشبح الذي يلبس ملاءة سوداء ويضع على رأسه قناعاً يشبه الجمجمة، يدنو مني فارداً كفه ليقول بصوت طفولي المفترض أنه مخيف:

«حلوى أم حيلة؟»

مددت يدي إلى حلوى التفاح فقبضت على بعضها ودسستها في كف الصغير.. عندها أطلق زئيراً واتجه نحو الباب..

من جديد واصل (هالبروك) محاضرته:

«هذه عادة أوروبية أخرى اسمها (الترويح).. كانوا يمرون على القرى المجاورة يتسولون (كعكة الأرواح).. فإذا كنت سخياً معهم وعدوك بأن يصلوا أكثر كي يرحم الله أقاربك الموتى، وإذا لم تعطهم لعنوك.. مورست هذه العادة لفترة طويلة، لكن جملة (حلوى أم حيلة) لم تظهر على الساحة إلا عام 1950 في قصيدة نشرتها جريدة امريكية.. »

قلت له باسماً:

«أي أنه نوع من التسول المقنع.. غير أنني أرى أن المتسول الذي يلعن من لا يعطيه طريف حقاً..»

وضحكت وضحكوا..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أشعر بهذه الغصة في حلقي؟

****

منتصف الليل...

نظرت لساعتي وتنحنحت معلناً رغبتي في الانصراف.. بكل المقاييس لم تكن سهرة سيئة.. لكن (هالبروك) هز رأسه ونظر لساعته بدوره، ثم قال في إلحاح:

-«ليس قبل أن نحتفل بعيد ميلادك.. إن هذا سيضايق السيدة جداً»

ونظرت بجانب عيني فوجدت زوجته قادماً ترتدي ما يشبه عباءة طويلة سوداء، وتحمل كيساً من البلاستيك، وقد بدا عليها الاستعجال.. كدت أقول شيئاً مازحاً بصدد العباءة، لكني خفت أن تكون هذه موضة العام.. أنا لا أفهم شيئاً في ثياب النساء..

قالت له:

-«منتصف الليل.. هيا!»

هنا نظرت إلى باب الردهة لأرى الصبي قادماً وهو يلبس عباءة مماثلة، وكان ذهولي شديداً عندما رأيت (هالبروك) يأخذ من الكيس الذي تحمله زوجته عباءة أخرى، فيضعها على كتفيه..

قلت لهم في تهكم:

-«هل هذا حفل تنكري؟»

قال بلهجة لا مزاح فيها:

-«كلا.. تفسير هذا يستغرق وقتاً..»

ثم أخرج من سترته مظروفاً مغلقاً وقال وهو يناولني إياه:

-«اقرأ هذا بعد انصرافنا.. سوف نعود سريعاً مع المفاجأة.. صدقني إن هذا مرتبط بعيد ميلادك..»

وسرعان ما أشار لزوجته وابنه فانطلقوا مغادرين البيت.. وجلست وحدي كالأبله في البيت الخالي.. فجأة انقطع التيار الكهربي فوجدت نفسي في الظلام.. لم أرتبك كثيراً لأني وجدت شمعة على منضدة الطعام فأشعلتها بقداحتي.. وجلست أمامها..

أخذت نفساً عميقاً وفتحت الرسالة فوجدتها مكتوبة بخط نضيد انيق:

-عزيزي د. حجازي:

«أعرف انك ستغضب مني لهذا التصرف الغريب، لكن الأمر مهم فعلاً بالنسبة لنا.. لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أنك وحيد تماماً في المنزل وأنه لا سبيل لمغادرته لأن النوافذ مدعمة بالحديد والأبواب

موصدة.. دعك من أنك لا تستعمل الهاتف المحمول وخطوط الهاتف مقطوعة هنا..

«لم أحدثك عن عقيدتي الخاصة.. إننا ننتمي إلى العقيدة (الدرويدية Druidic) التي ينسب لها البريطانيون كل عادة غير مفهومة لديهم.. بالتالي نحن نمارس الهالوين بذات الطريقة التي كان أجدادنا الكلت يمارسونه بها.. يقال إن (ساوين) كان يستدعي أرواح الموتى جميعاً في هذا اليوم ليتولي تنسيقها. كان الكلت يهابون هذه الليلة ويستعدون لها بالنيران في الخلاء والأقنعة وربما بعض الأضحيات البشرية.. إنها بالنسبة لهم لا تمثل عيد (ساوين) فحسب، بل نهاية الصيف الجميل وقدوم الشتاء الرهيب الكئيب.. يقال أيضاً إن أرواح الذين ماتوا في العام الماضي تخرج بحثاً عن أجساد حية تسكنها.. في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت..»

وابتلعت ريقي ونظرت حولي إلى الشقة المظلمة ثم واصلت القراءة:

«كان الكلت يطفئون النيران في ديارهم، ليجعلوا بيوتهم باردة غير مريحة للأرواح، ويلبسون أكثر الأقنعة إفزاعاً.. الأقنعة التي يمكن أن تخيف الأشباح ذاتها.. الآن أنت تفهم ما فعلناه ولماذا غادرنا الدار بهذه اللهفة.. على أننا تركنا للموتى هدية هي قربان بشري.. أنت قربان فريد لأنك مولود في الأول من نوفمبر.. وهذا يجعل (ساوين) راضياً عنا.. وهذا ما قمنا به في كل بلد ارتحلنا إليه من قبل، لكنها المرة الأولى التي نفعلها في بلدكم الجميل.. سامحني وأعرف أنك لن تحقد علي..

بإخلاص:

إدوارد هالبروك

ما إن فرغت من قراءة هذه الكلمات حتى هرعت أتأكد مما قال.. بالفعل لا توجد طريقة لمغادرة هذا البيت.. جربت كل الأبواب على ضوء الشمعة.. هززت النوافذ.. استعملت الهاتف لأسمع لا شيء.. صوت البلاستيك إن كان له صوت..

هذا الرجل يمزح.. هذه دعابة قاسية سمجة.. لا شك في هذا..

قال: «سامحني.. لن تحقد علي».. يا له من أحمق!.. لو قابلته لهشمت رأسه..

هنا سمعت الصوت..

هناك من يعبث في الباب الخلفي.. هناك باب خلفي للمطبخ في هذه الدار..

جريت على ضوء الشمعة إلى المطبخ.. وقفت خلف الباب فسمعت الصوت.. صوت أنين.. صوت عواء مكتوم.. بينما هناك من يداعب القفل بيده.. يدخل فيه أشياء...

كانت هناك شراعة صغيرة فجذبت مقعداً ووقفت عليه واختلست نظرة إلى الخارج.. إلى الحديقة الخلفية للدار.. كان الظلام دامساً بالفعل.. لكني رأيت ثلاثة.. أربعة أشخاص مدثرين بالأبيض يقفون وراء الباب ويحاولون فتحه في لهفة.. أبيض؟... أكفان؟

ترجلت وركضت نحو الباب الأمامي.. الشمعة انطفأت.. لابد من لحظة كي أشعلها... هناك من يعبث به.. هذا أكيد.. هناك من يدخل جسماً معدنياً فيه....

«في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت».

****

الطابق العلوي!

نسيت أن هذه الدار ذات طابقين..

أنظر لأعلى إلى مصدر الصوت فأسمع ذات الصوت.. هناك من هو آت من الطابق العلوي وهو يئن بلا انقطاع.. ثمة شعلة تتوهج.. . أراها تتحرك ببطء قادمة من أعلى.. . . .

أركض إلى الباب الأمامي واقف وراءه أصغي لمحاولات الاقتحام..

ثمة نافذة مطلة على الحديقة تنفتح ببطء.. أرى يداً تدخل منها.. لن تستطيع الدخول لأنها مدعمة بالحديد..



لكن.....

أركض نحـو المائدة التي كنا نأكل عليـهـا.. أبحث عن سـلاح مـا.. في النهـاية أقـرر أن أزحف تحـتـهـا مـخـتـبـئاً... كم سـيطول الوقت حـتى يجـدوني؟؟؟.. لن يطول.. هذا نوع من فـرار الفـأر من القط في غـرفـة مغلقة..

هنا سمعت صوت الانفجار إذ انفتح الباب الأمامي للدار....

انفتح مرة واحدة...

أخرجت رأسي من تحت المائدة ونظرت..

هنا رأيتهم يقفون في فرجة الباب.. كانوا مسربلين بالملاءات لكنهم لم يكونوا موتى.. كانوا أصدقائي في العمل.. حوالي عشرة منهم.. وكانوا يضحكون.. أحدهم يحمل تورتة عليها شموع وآخر يلتقط لي صورة بالفلاش حيث تواريت تحت المائدة..

وسمعت الإنشاد:

«هابي بيرث داي تو يو!»

و(هالبروك) يقول وهو يوشك على فقدان وعيه من فرط الضحك:

«دعابة قاسية.. أنا آسف!... لكنك أقنعتني بشجاعتك.. أنت بالفعل عقلاني لا تؤمن بالخرافات على الإطلاق!»

وخرجت من تحت المائدة وأنا ألهث.. كانت دعابة محكمة فعلاً ولا أنكر هذا...

تسألني عن أسرة (هالبروك)؟

أسـرة لطيفة هي.. لكني لسـبب مـا قطعت كل عـلاقة لي بها منذ تلك الليلة.

****

دقـــات

توك.. توك.. توك!

دقات.. لكنها تختلف عن أية دقات أخرى.. ولهذا قصة أحكيها لكم الآن..

****

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. ربما كان الأمر كله هراء لكنه هراء مسل ومثير.. أعترف أن التفاوت بين البشر موجود في كل شيء.. أنا لا أستطيع تحريك أذني لكني أعرف أكثر من عشرة أشخاص يقدرون على ذلك.. بطل العالم في التنس ليس سوى رجل مثلي ومثلك لكننا نعتقد أنه خارق..وهذا يشمل الحواس ذاتها.. زرقاء اليمامة رأت الجيوش المعادية بينما قومها لم يروا شيئاً وحسبوها تخرف. د. (إيمانويل ليبمان) كان يسمع صوت اللغط على قلب طفلة قبل أن يسمعه زملاؤه الأطباء بأسبوع كامل، وكان من السهل عليه لو أراد أن يدعي امتلاكه لقدرة الاستبصار.. أعتقد أن المتمتعين بالقدرات الخارقة للحواس يملكون قدرًا أكبر من الإدراك.. إنهم (يحركون آذانهم) على نطاق أوسع..

ثم ذلك الرجل الذي دعاني للجمعية.. د. (جيمس ماتيسون).. ألا تراه طريفًا بقامته القصيرة وعصبيته وعينيه النافذتين؟.. وماذا عن البناية العتيقة التي تعود لعام 1882؟... تذكر أن هذا الباب الذي تجتازه اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس) وأدباء أكبر مثل (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لا تنس كذلك أن تعبير الإدراك الفائق للحواس Extrasensory perception هو من ابتكار هذه الجمعية، وهو ما صرنا نختصره بحرف إي إس بي ESP.. ربما قابلت هذه المواضيع تحت مسمى الباراسيكولوجي الذي يختصره كتاب الخيال العلمي إلى Psi ـ أو psionics ..

ألا ترى معي أن هذا كله مثير؟

****

لن أدخل في تفاصيل.. أنت تعرف موضوع زيارتي لبريطانيا وكيف تعرفت د. (جيمس ماتيسون).. إنه - كما تعرف - طبيب نفساني لكنه من أعضاء الجمعية البارزين.. وكان هو نفسه يملك بعض الحيل الطريفة التي تعلمها من اليوجيين.. لكنه كان يندهش من انبهارك بها، ويقول في تواضع إنها مزيج من السيطرة المطلقة على العقل وقليل جدًا من خفة اليد..

قلت له:

«كيف وأنت رجل علم تؤمن بهذه الترهات؟»

قال بطريقته العصبية التي تقتضب الكلمات اقتضابًا:

«أنا لا أؤمن بها لكني أجرب.. أنا متعادل منذ البداية.. لهذا لا أطلق عليها ترهات ما لم أتأكد بطريقة علمية صحيحة من أنها ترهات..»

ثم استطرد قائلاً:

«هنا ندرس الإدراك الفائق للحواس وندرس التحريك عن بعد.. هناك أنواع عدة من الإدراك الفائق للحواس؛ منها التخاطر أو قراءة الأفكار أو قراءة العواطف، وهناك تحريك المادة عن بعد.. والاستبصار وهو رؤية المستقبل.. ورؤية أشياء ليست أمامك وسماع أشياء بعيدة - أما السايكومتري فهو قدرة الإحساس بمن لمس الشيء.. هناك كذلك موهبة التواجد في مكانين في الوقت ذاته.. ثم القدرة على إشعال الحرائق ذهنياً.. والقدرة على إحضار الماديات إليك..»

«وتعتقد أن هذا كله ممكن؟»

«أنا لا أعتقد.. أنا أدرس وهذا هو ما لا تريد فهمه»

ثم اقتادني إلى مختبر (جانتسفلد) الذي تم إدخاله عام 1974، والمعزول عن أية مؤثرات بصرية أو صوتية، حيث يجلس من يدعون أو يتساءلون عن قدرتهم على الإدراك الفائق للحواس.. هناك يكفون عن اعتبارهم بشرًا ويعتبرونهم (مواضيع).. كان (الموضوع) يجلس معصوب العينين أمام عالم يمتحنه.. ترى العالم يمد يده إلى مجموعة من البطاقات عددها خمس وعشرون بطاقة.. ثم يرفع إحداها في

الهواء ويطلب من (الموضوع) أن يخمن محتواها.. هذه البطاقات تدعى بطاقات (زينر) وعليها رسوم مختلفة مثل الصليب والدائرة والموجة والنجم.. الخ...

إذا استطاع الموضوع تخمين ست إلى عشر منها فهو يملك تلك القدرة.. إنه مشروع وسيط أو على الأقل يملك الحاسة السادسة..

«لماذا هذا الرقم بالذات؟»

«هذا نتيجة دراسات إحصائية مرهقة وضعها العالم الأمريكي (جوزيف بانكس راين).. وهي طريقة لاستبعاد عامل الصدفة.. إن النتائج مبهرة لكنها غير قابلة للتكرار.. (الموضوع) الذي ينجح عشر مرات في تجربة قد ينجح خمس مرات فقط في التجربة التالية.. بينما صفات الظاهرة العلمية الصحيحة يجب أن تتضمن قابليتها للتكرار..»

هنا جاء أحد العلماء يخبر (ماتيسون) أنهم مستعدون للتحرك.. جميل.. لقد حان الوقت.. لكن تحرك إلى أين؟..

كان الليل قد بدأ يجتاح المدينة.. وفي السيارة المتجهة إلى ذلك البيت الريفي خارج (لندن) أخبرني (ماتيسون) أنهم في الطريق لتطبيق عملي لخبرات الإدراك الخارق للحواس.. من حسن حظي أن أكون موجودًا أثناء التحري.. هذا يعطيني فكرة أفضل عما يقومون به هنا..

القصة هي البساطة ذاتها.. وهي التكرار بعينه..

في هذا البيت تعيش أختان عانسان.. (إميلي) و(جين).. كل العوانس الإنجليزيات اسمهن (إميلي) ويبدو أن هذه عادة استنتها (إميلي برونتي).. ولم يعكر صفو الأختين شيء طيلة حياتهما التعسة السعيدة حتى انتقلتا إلى هذا البيت منذ عام.. وهنا بدأت أشياء غريبة تحدث..

الأخت الكبرى مخيفة في حد ذاتها.. يصعب أن تصدق أن شيئًا يمكن أن يخيف هذه المرأة.. وهي تلبس ثيابًا لا تمت لهذا العصر.. دعك من حذائها الذي يذكرك بحذاء (الطنبوري) في تراثنا..لكنها تتحدث في رعب عن كلبهما.. إنه في أسوأ حالاته النفسية منذ جاء هنا، وهو يرفض بشمم أن يدخل قطاعات بعينها من البيت.. الردهة محرمة



عليه.. مواضع بعينها في الحديقة.. الكرار.. إنه يقف هناك متصلبًا ويصدر صوتًا يثير الشفقة.. أما لو حاولت أن تدخله برغمه فإن شعر عنقه يتصلب ويزوم بتلك الطريقة المنذرة بالويل، والتي تسبق تمزيق حنجرتك..

الأخت الصغرى مثيرة للتوجس.. إنها تحكي عن صوت الدقات التي تدوي في أرجاء البيت ليلاً.. دقات لا يمكن معرفة مصدرها.. إنها قادمة من كل مكان ولا مكان.. وهذه الدقات لا تحدث إلا وهما موجودتان.. أي أنها لم تحدث قط لشخص منفرد في المنزل.. فيما عدا هذا هناك شهود محترمون..

إلام تفضي هذه الدقات؟..

قال د. (ماتيسون):

«هذه هي القصة المعتادة.. حسب كلام المؤمنين بهذه الأشياء غالبًا ما تشير الدقات بعناد إلى مكان في الجدار.. هذا المكان نجد فيه جثة مدفونة منذ عقود..طبعًا روح صاحب الجثة هي التي كانت تدق..»

سألته في تهكم مهذب:

«وكلام غير المؤمنين بهذه الأشياء؟»

«يطلقون على هذه الدقات اسم Rappings.. إنها نوع من قدرات التحريك عن بعد لكنه لا إرادي.. أي أن الشخص الذي يعاني هذه الظاهرة يقضي أسود ليالي حياته غير عالم ـ الأحمق ـ أنه هو من يحرك الأشياء بعقله لتصدر هذا الصوت.. هناك جزء من نفسيته يتصرف بشكل مستقل عنه.. ونحن نرى هذه الظاهرة بكثرة في سن المراهقة لأنها سن ظهور هذه القدرات.. قديمًا قيل إن المراهقة هي سن المس الشيطاني لكننا اليوم نقول إنها سن التحريك عن بعد دون علم الموضوع..»

هكذا بدأت السهرة.. لا أزعم أنني أفهم كل ما قاموا به.. لكنهم بحثوا عن مكبرات صوت خفية.. وقاموا بالتقاط عدة صور عادية وبالأشعة تحت الحمراء، ثم قاموا بتوصيل كاميرات وأجهزة تسجيل.. هناك أجهزة لا أعرف ما تقوم به لكنها جعلت الأمر أقرب إلى حرب الفضاء..



الخلاصة إنني أيقنت أن الشبح البائس سيصاب بهلع لو فكر في دخول البيت الآن.. لا أحب أن أكون مكانه..

على منضدة جلس (ماتيسون) يلعب الورق مع أحد رفاقه، أما الأختان الشمطاوان فقد راحتا تتسليان بالحياكة على مقعديهما المفضلين.. هناك عالم نام وآخر موشك على النوم، والكلب يقعي جوار الأختين، وأنا المصري أجلس أراقب كل هذا..

هل كان هذا منتصف الليل؟.. أعتقد ذلك..

****

توك.. توك.. توك!

****

بدأت الدقات.. ومعها وثب الجميع.. يجب أن أقول إن الرعب شلني ففقدت التحكم في قدمي تمامًا.. لم أعد قادرًا على الوقوف.. هذا الصوت يأتي من كل مكان ولا مكان.. إنه الكل الذي نحن فيه.. صوت غريب لم أسمع مثله من قبل.. أما عن حال الكلب البائس فحدث ولا حرج..

تدور أجهزة التسجيل.. ويصيح (ماتيسون):

-«صوروا الأختين!.. أريد أن أرى كل جزء منهما في المختبر.. تأكدوا من أنه لا توجد حبال أو حيل ما.. لا دقات خفية تحت المنضدة..!»

لكن الأمر كان واضحًا.. إنهما جالستان في الوضع ذاته.. لم يتغير شيء إلا ابتسامة من طراز (ألم-نقل-لكم-؟).. الدقات عالية مستمرة موحشة... كأنه الموت ذاته قادمًا على عكاز وقدم خشبية .

ومن أعلى جاء صوت احد العلماء:

-«سلبي.. لا يوجد شيء في العلية..لا يوجد أشخاص مختبئون»

قال د. (ماتيسون) في حيرة:

-«وهذا ليس تحريكًا عن بعد.. إذ لا شيء يتحرك..»

ثم نظر لي في حماس وهتف:

-«هل من تعليق ما؟.. ليس من رأى كمن سمع!»

لكني كنت قد بدأت استعيد قدراتي العقلية.. هكذا نهضت ونظرت حولي.. ثم أشرت إلى الأخت الكبرى (إميلي) وقلت لها أمرًا غريبًا لم تفهمه لذا طلبت من (ماتيسون) أن يكرر الأمر:

-«إنزعي حذاءك!»

بدا عليها الغيظ المصحوب بالذهول.. هذه إهانة.. لكني كررت الطلب..

هكذا انحنت وانتزعت حذاء (الطنبوري) الشهير.. ودعني أؤكد لك أن قدميها لم تكونا ساحرتين.. قدم لم يرأف بها النقرس والتهاب العظام المفصلي، دعك من نظافتها الشخصية..

لكننا الآن نرى قدميها عاريتين.. وندرك للمرة الأولى الحقيقة: لقد توقفت الدقات!!

ظلت تنظر لنا وننظر لها في تحد.. توطئة لأن يسألني (ماتيسون) كأنني أكبر مغفل عرفه:

-«هل لك أن تفسر لي ما يحدث؟»

قلت وأنا أنهض لأزيل عني كل هذا التوتر:

-«الأمر سهل.. كنت قد قرأت عن قصة الأخوات (فوكس) الشهيرات في أمريكا في أوائل القرن العشرين.. إنها تشبه هذه القصة جدًا.. ثلاث شقيقات هن.. كن يتخاطبن مع الأرواح في بيتهن، وذلك عن طريق إحداث خبطات معينة، فكانت الأرواح ترد بشفرة مماثلة.. وعن طريق هذه الرسائل المتبادلة عرفن أن هناك قتيلاً دفن في جدران منزلهن.. عمت شهرة الأخوات الثلاث ربوع البلاد، ومن هنا ظهرت فكرة التخاطب مع الأرواح وتكونت جمعيات في كل مكان من العالم تجرب الشيء ذاته. لكن حب الشهرة يحرك المرء دومًا.. وأحيانًا يعترف المجرم بجريمته ليفتخر بعبقريته مفضلاً السجن على الكتمان.. هكذا اعترفت إحداهن - وتدعى (مارجريت فوكس) - بأن الصوت الرهيب الذي كانت تحدثه الأشباح أحدثته هي بمفاصل

قدمها!.. وقد أحدثت صوت (الدقات الشبحية) أمام 2000 متفرج مذهول في مسرح كبير. وقد قالت بعد هذا الاعتراف: كل موضوع الوساطة الروحية هذا نصب في نصب.. لكنه نصب على أعلى طراز ويحتاج إلى تدريب شاق!»

كانت هذه ضربة قوية جدًا لعلم الوساطة الروحانية.. وقد رفض كثيرون من علماء البارسيكولوجي الاعتراف بهذه الهزيمة..

ثم أشرت إلى الأخت الكبرى وقلت:

-«نحن نرى أنه لم يتحرك شيء فيها.. لكن لماذا ترتدي هذا الحذاء العتيق؟.. ببساطة لأنه يخفي حركة اصابع قدميها، وهي اصابع أضناها النقرس.. من ثم صارت تحدث هذا الصوت الصاخب المخيف القادم من لا مكان..ومن الطبيعي أن خلع حذائها جعل الأمر مفضوحًا.. إن هذه الآنسة ليست إلا باحثة عن الشهرة والاهتمام»

نظر (ماتيسون) إلى المرأة التي راحت تلبس حذاءها، فقالت في ضيق:

-«أنتم مخرفون ضيقو العلم.. وإنني لأطالبكم بمغادرة داري حالاً..»

نظر (ماتيسون) إلى الرجال وقال:

-«هذا ما سنفعله حالاً يا آنسة.. اجمعوا حاجياتكم يا شباب..»

ثم نظر لي باسمًا وقال:

-«كما قلت لك.. مقياسنا هو التجريب.. لن تكون هذه الأمسية الأولى ولا الأخيرة التي تذهب هباء»

****

مرت أعوام كثيرة، وتطايرت أوراق التقويم في الهواء كما يحدث في أفلام (توجو مزراحي) القديمة..

لقد اتصل بي د. (ماتيسون) منذ أسبوع، ورحنا نتذكر تلك الأيام التي لن تعود.. ضحكنا كثيرًا جدًا.. وحكى لي عن تجاربه مع الفقير الهندي الذي سجنوه تحت الأرض أسبوعين.. ذكرته في تشف بقصة



الأختين.. لقد استطاعتا خداع أساطين علم القدرات الفائقة، لكنهما لم تخدعاني.. ربما لأنني احتفظت بهامش واسع من الشك أكثر منهم.. قال لي إن كبراهما ماتت منذ عام أما الأخرى فقد غادرت البيت ولا يعرف أحد مكانها.. أما المنزل فقد هدم..

وقال وهو ينهي المكالمة:

«على فكرة.. كانت هناك جثة امرأة مدفونة في جدار الردهة.. لابد أنها موجودة هناك منذ مائة عام على الأقل.. لكني معجب بعقلك العلمي المرتب.. معجب به جدًا..!»

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. أم أن لك رأيًا آخر؟

****

إنها تأتي ليلاً

وحيدًا في عربة القطار ..

لم أعتد أن أركب هذا القطار بالذات في ذلك الموعد المتأخر، لكن
لظروف خاصة وجدت أن علي أن أمضي ليلتي في الإسكندرية
وهكذا وجدت نفسي ألحق به قبل قيامه بدقيقة ..

وحيدًا في عربة القطار ..

كنا في يوم ميت من أيام الأسبوع، وفي ساعة يلفظ فيها اليو
أنفاسه ..لا إجازات دانية ولا هو موعد عودة موظفين أو طلاب .. له
لم أندهش كثيرًا حينما وجدت أنني الشخص الوحيد الموجود في هذ
العربة ..

مر بي المحصل، وهو رجل بدين وقور يدلي عويناته على قصب
أنفه ليتمكن من النظر فوقهما كأنه صقر يترصد فريسته ، وقد تفحص
تذكرتي دون ان ينظر لي نظرة واحدة ثم واصل مهمته الغامضة
ترى هل العربات الأخرى بالحالة ذاتها ..؟.. لا أعرف .. ثم إنني مو
بالوحدة، وهي هبة يصعب أن تجدها في بلدي .. أحيانًا يخطر لي أ
من المستحيل أن تجد نفسك وحيدًا في أي مكان .. (الجحيم ه
الآخرون) .. قالها (سارتر) يومًا ويبدو أنني بدأت أميل إلى هذا الرأ
مؤخرًا .. أنا الآن وحدي .. وحدي ..

فتحت الكتاب الذي أحمله معي كلما سافرت، والذي أتوق إلى أ
أطالع حرفًا واحدًا فيه بعد صفحة 34 التي قرأتها منذ أربعة أشهر
وبدأت بحماس غزو الصفحة رقم 35 .. لكني نسيت عدوًا آخر غي
الآخرين .. هذا العدو الذي أغرته بالقدوم العربة الدافئة وإرهاق اليو
الطويل وصوت ارتطام العربات المنتظم الرتيب : النعاس ..

بدأ جفناي يثقلان حتى صار وزن الواحد طنًا .. وبدأت بعض
الأحلام السخيفة تتداخل مع سطور الكتاب .. فقط يدوي صوت ما مر
آن لآخر لأصحو من النوم مذعورًا وأنا أتساءل عما يريده (أدولف
هتلر) من زوج خالتي .. ثم أدرك من أنا وأين أنا فأعود إلى صفحات
الكتاب ..

ظهرت هي للمرة الأولى بعد ربع ساعة ..

لم أشعر بها في البداية لأني كنت مغمض العينين، لكني رأيت فيما يرى النائم كيانًا أسود باردًا يمر بجواري .. فتحت عيني مذعورًا فرأيتها تجلس على مقعد يتقدمني بصفين .. المقعد المجاور للردهة على الجانب الآخر .. لهذا صرت أراها بوضوح ..

إنها فتاة ـ لابد أنك خمنت هذا ـ في العشرينات من العمر .. أعتقد أنها على شيء من الجمال إذا حكمت من جانب وجهها الأيسر .. وهي ترتدي ثوبًا أسود يوحي بالحداد ..

عدت لقراءة كتابي .. وبنجاح تام انتقلت إلى صفحة 36 ..

****

بعد قليل بدأت المشاكل ..

رأيتها تبحث في حقيبتها ثم تخرج هاتفًا محمولاً .. كنا في منتصف التسعينات ولما يصر هذا الاختراع (في يد الجميع) .. بدا لي إنها معجزة حقيقية أن تجري مكالمة وأنت في قطار، ورحت أنظر لها بفضول تام شبه وقح ..

كانت تضع الهاتف على أذنها، وتتكلم بشيء من العصبية، وبصوت عال لا يمكن أن تتجاهله:

-لا يا (عادل) .. أسلوبك هذا لا يريحني وإنني لأطالبك باتخاذ قرار سريع ..»

بدا لي أن الأمر مسل، فأغلقت الكتاب المنكوب بعد ما ثنيت صفحة 36 .. أعرف ولع الفتيات بمناقشة مشاكلهن العاطفية بصوت عال في أماكن عامة .. إن هذا يمنحهن نوعًا من الرضا عن النفس .. إن لهن (مواضيع) وخلافات عاطفية .. الخ .. لسن منبوذات ولا منسيات .. لكن الويل لك لو ظهر ما يدل على أنك تتنصت ..

-أعرف أنك تتعذب .. أعرف أنك تعاني .. لكن لا تتوقع لحظة أن أقبل هذا كعذر نهائي .. نعم ؟ .. ماذا ؟ .. أفهم هذا .. أنا قد جربته فلن تضيف

لمعلوماتي شيئًا ..»

الفتى متردد جبان يختلق الأعذار وهي تقنعه بشيء ما .. ربما يتعلق الأمر بمصارحة أهله أو الاعتراف لزوجة لا يحبها طالبًا الطلاق أو ... المهم أن هذا الفيلم العربي الذي أسمعه بالقوة سوف يسليني في هذه الرحلة، ما دمت غير قادر على التركيز فيما أقرأ ..

ظلت تصغي قليلاً ثم قالت:

-«الأمر سهل .. علبة أقراص منومة كاملة .. دعك من أساليب الأطفال .. لا تبتلع قرصين ثم تقول إنك حاولت وفشلت .. لا .. لا .. ليس اللبن .. !.. إنه يعوق الامتصاص !.. سوف يبدو الأمر كأنه النعاس .. صدقني .. تذكر ما مررت أنا به .. تذكر أنني لم أختر هذه الطريقة الناعمة الجبانة ..»

هنا سقط الكتاب من يدي .. عم تتكلم هذه الفتاة بالضبط ؟!

كانت تواصل الكلام:

-«يقولون إن المرأة تفضل أن تقتل نفسها بالسم .. أما الرجل فيستعمل طرقًا أعنف .. من المضحك أن تنقلب الآية، وأن تكون المرأة هي البادئة ثم يجبن الرجل بعد رحيلها !»

ثم راحت تضحك بطريقة هستيرية شبه تمثيلية، مطوحة برأسها إلى الوراء ...

-«هاها ..!.. لكني سأعرف كيف أقنعك !.. أنت تعرف (ميادة) عندما تزمع شيئًا !»

الآن بدأت أفقد روعي .. جلست على حافة المقعد حتى أوشكت أن أجلس على الأرض .. ثمة شيء ما خطأ هنا .. شيء ما خطأ بلا شك ..

قالت الفتاة بعد دقيقة صمت:

-«لم يكن الأمر ممتعًا ... الوحدة .. الظلام .. الرطوبة ...صوت بنات آوى يتردد في أرجاء المكان المقفر فوق رأسك بالذات.. ثم تخرج تلك الشياطين من تحت الأرض لتعتصرك .. دعك من الجسد الممزق الذي

تعرف أنه جسدك ... هذا هو العذاب بعينه .. لكنك اتخذت قرارًا ولابد من تنفيذه .. أعطيتني عهدًا وقد حان وقت الوفاء به .. وأنت تعرف أن (ميادة) لا يمكن خداعها ... سوف تجدني وراءك في كل مكان أيها الصبي .. صدقني .. سوف تتمنى الموت للفرار مما أنت فيه .. لكن الموت هو ما أريده بالذات لك .. عندها نكون معًا .. إلى الأبد ..!»

****

عند هذا الحد قررت أن الوقت قد حان للنهوض ...

كلام هذه الفتاة لا يوحي براحة نفسية ... أعرف أنني اخطأت الفهم .. أعرف أن استراق السمع إلى محادثة يعطيك فكرة غير دقيقة عن محتواها .. لكن هناك بعض العبارات التي لا أجد لها تفسيرًا، والتي تشعرني بأن عربة القطار هذه باردة فعلاً .. واسعة فعلاً ... مقفرة فعلاً ..

أعتقد أن الوقوف ما بين العربتين سيكون أفضل .. ولم أجرؤ على اتهام نفسي بالجبن، لذا قررت أنني بحاجة إلى لفافة تبغ ..

هكذا مشيت مترنحًا عبر الممر متجهاً لطرفه الذي لا يضطرني إلى المرور جوارها..

هناك بين العربتين وقفت .. أغلقت الباب ورحت أنظر لطرف كتفها من النافذة التي تتوسط الباب .. أنا لست خائفًا .. لقد جئت هنا كي أشعل لفافة تبغ .. ثم تذكرت ان هذا العذر واه لأنني لا أدخن ... !

ونظرت لساعتي .. نصف ساعة أو أكثر قليلاً حتى (سيدي جابر).. لن أنتظر الوصول إلى (محطة مصر).. سأترجل وأجد أية مواصلة ..

«(ميادة) هنا ؟!»

سمعت الصوت من خلفي فأجفلت واستدرت.. كان هذا أحد محصلي القطار .. رجل فارع الطول أشيب الشعر له عين يمنى تظللها سحابة .. وكان ينظر إلى العربة الخالية من النافذة إياها ويتمتم بالبسملة..



نظر لي فرأى توتري .. قال وهو يشعل لفافة تبغ:

-«لا تخف .. هي لا تؤذي أحدًا .. لكنها تظهر عندما تكون العربة خالية .. فقط لا تستفزها وتظاهر بأنك لم ترها .. طبعًا لا مانع من تلاوة أية آيات قرآنية تحفظها ..»

لم أفهم مغزى ما يتكلم عنه فقلت همسًا:

-«هذه الفتاة مخبولة تمامًا !.. إنها ....»

وحركت أناملي جوار صدغي في حركة مألوفة، لكنه قال في جدية مقلقة:

-«لا .. منذ أشهر كانت وحدها في هذه العربة بالذات .. ثم لسبب لا نعرفه اتجهت إلى الباب فأزاحت المزلاج ووثبت من القطار المسرع!»

أطلقت شهقة فأردف هامسًا:

-«أنت تعرف هذه المشاكل النفسية والعاطفية التي تملأ عقول المخابيل ... منذ ذلك الحين لم تكف عن الظهور في عربة القطار هذه كلما كانت خالية .. ليس منا من لم يرها .. إنها تسبب ذعر من يتصادف أن يقابلها لكنها لم تؤذ أحدًا قط .. وسرعان ما تختفي ..»

رأى النظرة على وجهي فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

-«طبعًا لا أطالبك بالعودة إلى هذه العربة .. يمكنك أن تذهب إلى أية عربة أخرى بقية الرحلة ..»

كان هذا لا يحتمل المناقشة .. ثمة احتمال أن يكون الرجل يتلاعب بي، لكن ما سمعته من المحادثة مريب حقًا ... الفتاة انتحرتْ وتوقعت أن يلحق بها حبيبها على طريقة (روميو وجولييت) الشهيرة، لكنه لم يفعل .. وهي تطلبه من عالمها مستعملة الهاتف المحمول.. شبح عصري جدًا كما ترى ..

هكذا استدرت لأقصد العربة المجاورة.. فجأة شعرت بتيار هوائي بارد .. إن الباب خلفي مفتوح ..

وفي اللحظة التالية شعرت بيد قاسية باردة كالثلج تمسك بيدي ..

استدرت مذعورًا فوجدتها هي .. هي ذاتها ... عيناها متسعتان وهي تنظر لي في توحش وتقول من بين أسنانها:

-«إلى أين أنت راحل ؟... لقد سمعت المحادثة !.. هل تعتبرني مجنونة !؟»

تعثرت الكلمات على شفتي ونظرت للوراء لأستغيث بالمحصل، فرأيته يبتعد مسرعًا إلى العربة التالية دون أن ينظر للوراء .. إنه الفرار إذن.. سوف ينساني بعد دقيقتين ..

قالت لي وهي تضغط على يدي:

-«تعال واجلس في العربة .. لا تذهب لأي مكان ..!»

مشيت معها وأنا أرتجف .. فجلست في مقعدي السابق وعادت هي إلى مقعدها .. ومن جديد عادت تتكلم عن أهوال الموت ... تتنازعني عاطفتان .. عاطفة تصديق ما قاله لي المحصل لأن الموقف كله يبدو كابوسًا خاصة مع نظراتها وكلماتها .. وعاطفة عدم التصديق .. لكن ما معنى ما تقوله إذن ؟

ونظرت للوراء إلى الباب بين العربتين، فرأيت وجه المحصل الذي حذرني يختلس نظرة ليرى ما يجري .. تلاقت عينانا فهز رأسه بحركة متعاطفة وضم أنامله على شكل قمع وحركها بما معناه: اصبر وتحمّل .. فهي لن تؤذيك ..

لن تؤذيني ؟.. وهل الرعب ليس ضربًا من الإيذاء ؟

والفتاة تواصل مكالمتها الطويلة:

-«في اللحظات الأخيرة لم تعزني إلا فكرة أنك ستكون معي .. الآن تتردد .. طيلة حياتك تتردد .. لكن ما قبلته منك في السابق لم يعد مطروحًا .. إما أن تفعل ذلك بإرادتك أو آتي لأفعله بنفسي !.. هه ؟.. لا تصدق ؟!.. أنت لا تعرف ما بوسعي عمله ... لا تملك أية فكرة على الإطلاق عن قوانين هذا العالم الذي أعيش فيه .. ولو عرفت لما انتظرت لحظة ..»

أخيرًا بدأ القطار يقترب من الجنة الموعودة.. معذرة .. أعني محطة (سيدي جابر).. نظرت للفتاة فاستدارت ورمتني بنظرة حارقة ثم نهضت بلا كلمة واحدة ووقفت في وسط الممر وظهرها لي ..

اتجهت إلى الطرف الآخر لاهثًا وأنا أدعو الله ألا تلحق بي من جديد..

من جديد وقفت بين العربتين حيث استجمعت أنفاسي ..

في هذه اللحظة وجدت أنني أقف جوار المحصل الأول الذي رأى تذكرتي .. الرجل البدين الذي يدلي عويناته على قصبة انفه ..

رآني ورأى الفتاة من نافذة الباب، فقال دون أن ينظر لي:

-«(ميادة) هنا ؟.. هي ليلة سوداء إذن !»

هززت رأسي موافقًا بحماس فأردف:

-«لا حول ولا قوة إلا بالله .. تخيل أن هذه كانت طالبة متفوقة .. ثم صارت مخبولة تمامًا .. إنها تركب معنا كثيرًا جدًا ولا أحد يجرؤ على طلب تذكرة منها .. تضع هذا الهاتف اللعبة على أذنها وتجري مكالمة طويلة لا تفهم منها شيئًا»

قلت وأنا ابتلع ريقي بينما أضواء المحطة تتوهج من النافذة:

-«لكن زميلك فارع الطول قال إنها وثبت من عربة القطار منذ أشهر . وإن هذا شبحها ..»

نظر لي للحظة كأنما يتأكد من انني لا أمزح ثم قال:

-«أولاً ليس لي زميل فارع الطول في هذه الوردية ... ثانيًا ...»

قلت في إصرار وعصبية:

-«فارع الطول أشيب له عين يمنى تظللها سحابة.. »

فتح الباب وبدا كأنما هو يتذكر ثم هتف في تأثر:

-«آه .. هذا ينطبق على زميلنا (مسعد) رحمه الله... لقد توفي منذ

شهرين... سقط من هذا الباب بالذات بينما القطار مسرع .. لابد أنك رأيته في رحلة ماضية فاختلط عليك الأمر .. هذه (سيدي جابر).. حمدًا لله على السلامة .. لكن .. لماذا ترتجف هكذا يا أستاذ ؟.. ليس الجو باردًا بالخارج إلى هذا الحد .. ليس باردًا على الإطلاق !؟.

****

سأبكي كثيراً

عندما تنظر (غيداء) نحو قرص الشمس تشعر بأن عينيها ذهبيتان..

عندما تقف (غيداء) في الشمس تشعر بأن جلدها مشدود يوشك على التمزق .. وأن روحها من تحته تشرئب بحثًا عن حريتها .. هل ترى ؟.. هذا وريد .. وريد آخر .. إنهما يلتقيان هنا .. وريد ثالث.. عندها تضحك وتقول لك: بشرتي من النوع الواهن .. إنها لا تتحمل أي شيء ..

عندما تحزن (غيداء) تنظر للأرض، وتنسدل أهدابها على الخدين .. إنها تكره هذه الأهداب الساجية لأنها تتقصف دومًا داخل عينيها ...

عندما يأتي الليل ترتجف (غيداء).. وتشعر بأن روحها تتجمد ...

****

أنا كنت أحب .. لكني لم أخبر أحدًا بهذا الحب .. لم أخبر به (غيداء) وأعتقد أنني لم أخبر به نفسي صراحة، على أنني في الليالي المقمرة كنت أزيح الستار وأنظر إلى القمر وأفكر: (غيداء) تنتمي بشكل ما لهذا القرص المستدير .. إنه خال أو عم أو قريب بعيد لها ..

لم أكن متزوجًا وقتها إن كان هذا قد خطر لك ببال، لكني ما زلت أشعر بالذنب .. أشعر بأنني اقترفت نوعًا من الخيانة الزوجية، لأنني يومًا ما منحت أجمل ما في نفسي لفتاة، فلما جاءت زوجتي لم تجد شيئًا إلا هذه الروح الخاوية كخزينة مصرف أفلس...

كانت (غيداء) هي البداية وهي النهاية .. وقد قرأت (عن عبودية الإنسان) لـ(سومرست موم) فيما بعد، فلم أندهش للتعلق المذهل الذي كان يشعر به نحو ساقية الحانة (ملدريد) (كلما فكر في أذنيها الصغيرتين)... (ملدريد) خانته وأساءت له كثيرًا لكنه ظل مكبلاً بالأصفاد لها غير راغب في التحرر.. نعم .. أنا أفهم هذا لأني عشته وتنفسته وابتلعته وشربته ..

نعم كنت أحب (غيداء)، لكن (غيداء) لم تحبني ... هناك طعنة أولى نتلقاها في حياتنا وتظل ندبتها باقية للأبد، وأنا قد تلقيت طعنتي في ذلك الوقت، وحرصت باقي حياتي على أن أداريها وأداويها على رأي الخواجة (أدلر) تلميذ (فرويد) المشاغب ...

(غيداء) تختلف .. ألا ترى هذا معي؟.. هل تذكر محاضرة (الأدب اليوناني) إياها حينما كانت جالسة جواري، وكانت تدون كلمات في مفكرتها ؟.. كنا في الثانية بعد الظهر في يوم قائظ، وكان الحر والإرهاق يغمرانني .. مع ذلك الشعور الموجع بالحاجة إلى (حب شيء ما) الذي نشعر به في مارس وإبريل ويؤدي لرسوبنا في يونيو ..

كان المحاضر يخط على لوح الكتابة مصطلحات.. تلك المصطلحات التي ابتكرها (أرسطو) يومًا ما وهو يضحك ضحكة شيطانية، راغبًا في أن يحيل حياة الأجيال القادمة جحيمًا ..

ثم شممنا رائحة الشياط جميعًا ..

أول من شمه كانت فتاة هستيرية .. فراح أنفها يرقص كالأرنب، ثم بدأنا نشعر بشيء ما خطأ... بعدها رأينا أن قميص المحاضر يشتعل عند الكتف...

في اللحظة التالية أطلق الرجل صرخة، ووثب شابان كانا في الصف الأول وأخمدا النار بكفيهما .. وبعد ما زالت الهستيريا راح السؤال يتردد: كيف حدث هذا ...؟

- طالب وقح ألقى لفافة تبغ لتمس كتف المحاضر .. هذه لم تعد كلية .. إنه ناد ليلي ..

- إنه الحر .. ربما ...

- الاشتعال الذاتي .. هذه واقعة تاريخية مدونة وحدثت لعدد كبير من البؤساء .. فجأة يحترقون فلا يبقى منهم إلا رماد ...

- احتكاك الألياف الصناعية في القميص .. هذه الأشياء تحدث .. إن هذه الكهرباء الاستاتيكية ....

لكن أيًا من هذه التفسيرات لم يكن ليصمد ... ولو ألقى أحدهم لفافة تبغ لشممنا ورأينا .. الاشتعال الذاتي يستمر حتى النهاية الأليمة، ولم نسمع عن احتراق قميص من الحر .. إذن تظل نظرية الكهرباء الاستاتيكية هي الأفضل فيما عدا أن:

-«هذا القميص من القطن الطبيعي».

هكذا انتهت محاضرة هذا اليوم .. نهاية غير سعيدة لكنها فعالة ..

****

وكنا جالسين في الكافتيريا أنا وهي .. لابد أننا كنا في السبعينات لأن قميصي كان مشجرًا لو لبسه طفل اليوم لاتهمته بالابتذال، وكان سروالي من طراز الشارلستون، وسوالفي تحيط بجانبي فمي، وأنا أسألها ...

عندما تتحاشى (غيداء) عينيك يصير لون عينيها بنيًا .. وعندها تقول:

-«(محفوظ)... (محفوظ).. ربما أنت معجب بي .. هذا يدعوني للفخر والرضا .. لكني لن أتزوج شابًا لمجرد أنه معجب بي .. ضع نفسك مكاني .. أنا لن أكون لك ولا أي واحد آخر ..»

لكني كنت أعرف انها كاذبة .. كلهن يقلن هذا ثم يتزوجن أول عريس ثري يطرق الباب .. أنا لا أروق لها وهذا كل شيء .. ربما أنا أقبح من اللازم أو أغبى من اللازم أو أسمج من اللازم أو أفقر من اللازم .. ربما أنا كل هذا معًا .. سأعرف هذا فيما بعد في غرفتي امام المرآة ...

كانت في يدي لفافة .. وشممت رائحة التبغ المحترق تتصاعد لأنفاسي .. نظرت للفافة في دهشة .. متى أشعلتها ؟.. لا أذكر .. ثم بحثت في جيبي فلم أجد أعواد الثقاب ...

قلت لها في غباء:

-«اللفافة اشتعلت و......»

لكنها حسبتني أداري خيبتي .....

هل كان هذا قبل أن تشب النيران في بيتها ؟.. نعم .. بالتأكيد ... لأنني أنقذت حياتها في ذلك اليوم ...

كنت في غرفتي أحاول دراسة شيء ما .. عندما سمعت تلك الصرخة تشق السماء، فهرعت إلى الشرفة لأرى اللهب يتصاعد من غرفة

(غيداء).. (غيداء) بالذات !.. نعم .. هي جارتي في الحي الذي أسكنه .. ألم أخبرك بهذا من قبل؟... هكذا هرعت إلى باب شقتنا حافي القدمين بالفانلة الداخلية و سروال المنامة .. وهتفت أمي حينما رأتني:

«بسم الله الرحمن الرحيم !... هل جننت يا (محفوظ) يا بني ؟»

لكني كنت في الشارع فعلاً قبل أن تكمل جملتها، ورحت أثب درجات سلم دارهم .. وركلت بابهم بقوة لأندفع إلى الداخل .. لم أكن ذلك الفتى قوي البنيان عريض المنكبين، لكن الادرينالين الذي تدفق في دمي جعلني كذلك للحظات .. لقد انفتح الباب واندفعت إلى غرفة الأسرار .. قدس الأقداس... حيث كانت الكاهنة العظمى تصرخ وقد اشتعل الفراش الذي يقع بينها والباب.. لا اعرف كيف استطعت ان أجر الفراش الثقيل المشتعل إلى جانب الغرفة وأسمح لها بالخروج، ثم أهرع إلى الحمام- لا أعرف مكانه لكن حواسي صارت مرهفة كحواس السباع- لأملأ دلوًا بالماء وأعود لأسكبه على الفراش.... في هذه اللحظة عاد أبوها من الخارج ليرى المشهد المفزع.. لقد كانت وحدها في الدار ...

وسرعان ما تكأكأ الجيران وتعاون الجميع على إخماد الحريق .. لكني ظفرت منه بهذه الندبة في حاجبي .. هل رأيتها ؟.. نعم .. إن إطار النظارة يخفيها لأنني انتقيته بعناية.. عمر هذه الندبة إذن عشرون عامًا .. هناك ندبة في روحي وندبة في وجهي.. كلاهما من أجل الفتاة ذاتها ..

الكل يشكرني.. الجميع يربت على كتفي الذي ألهبته النيران .. لكني أنظر لجهة واحدة وأتوقع شكرًا من فم واحد ...

****

عندما تبدي (غيداء) امتنانها لك يحمر وجهها فيوشك على أن يشع...

حتى ونحن في مكتب الدكتور (مصطفى) أستاذ علم النفس بكليتنا لم تستطع أن تخفي هذه النظرة .. قلت لنفسي: أتراها متأهبة كي تغير رأيها ؟.. ثم شعرت بوضاعة.. أنا لم أنقذها كي تحبني .. لقد أنقذتها لأنني أحبها .. ثمة فارق مهم هنا ..

يقول د. (مصطفى) وهو ينظر لها في شرود:

«لا اعرف إن كانت استشارتي قد تفيدكما، لكني لست خبيرًا في هذه الأمور .. هذا ليس علم نفس»

قلت له في إصرار:

«سيدي .. أنت مثقف موسوعي قبل أن تكون أستاذًا لعلم النفس .. وأنا بحاجة للاثنين معًا لهذا أرغمتها على المجيء معي ..»

قال وهو يتصفح أحد المراجع:

«(بايروكينيزيس) .. من اليونانية (بور) بمعنى (نار) و(كينيزيس) بمعنى (تحريك) ... إنها القدرة على إشعال الحرائق ذهنيًا أو تحريك النيران .. هناك من يمارسونها بشكل إرادي، وهناك من يمارسونها بشكل عفوي ..»

ثم نظر في وجه (غيداء) وقال:

«وهناك من لا يعرفون أنها عندهم .. وهنا تكمن المشكلة ..»

قالت (غيداء) في حماس:

«أنا أنتمي للنوع الثاني .. لقد بدأت ألاحظ هذا منذ عامين .. كلما توترت أو تضايقت تشتعل الحرائق في موضع قريب مني .. برغم هذا لا أستطيع إشعال النار إراديًا ولا استطيع التحكم فيها ..»

قال وهو يغلق الكتاب:

«لو صح هذا فانت ظاهرة علمية جديرة بالدراسة ..»

قلت في حرج:

«لنأمل ألا يحدث هذا يا سيدي .. لكننا نأمل في البحث عن علاج ..»

مط شفته السفلى وقال وهو يحشو غليونه الأنيق الذي يحبه لأنه يعطيه سمت العلماء:

«علاج ؟... هل هذا مرض ؟.. في الحقيقة لا أملك ما أقدمه لك، لكني أرحب بأن تأتي لمكتبي في أي وقت .. أعتقد أن تمارين (التلقيم الرجعي) سوف ...»



«تمارين ماذا ؟»

«التلقيم الرجعي .. شيء كالذي يمارسه لاعبو اليوجا .. سوف تساعدك حتمًا على التحكم في هذه الموهبة ..»

في هذه اللحظة راح الدخان ينبعث من الغليون ..

نظر لها مندهشًا، فهزت رأسها في حرج وقالت:

«لم أحاول شيئًا .. كنت متضايقة لأنه لا علاج لدائي .. لا أكثر ..»

****

عندما تفارقك (غيداء) يظلم وجهها كأنه انعكاس للنور الذي يظلم في صدرك .. إنها ترنو إلى الأفق حتى لا ترى الدمعة في عينيها وتقول:

«الآن انت تفهم لماذا لن أكون لك ولا لأي واحد آخر ..»

«لا تقولي هذا .. سوف اجتاز مدخل داركم مرة أخرى، لكني لن أكون حافي القدمين .. سوف أكون متأنقًا .. وسوف أقنع أباك ..»

ضحكت بمرارة وقالت:

«لا تكن طفلاً .. المشكلة هي أنني لا أعرف متى ولا أين يشب الحريق القادم .. عندما ينام زوجي أم في غرفة نوم أطفالي .. ؟.. سوف أكون خطرًا داهمًا على من حولي في كل وقت .. لن يعرفوا أبدًا متى يحترقون .. »

«إذن ؟»

«إذن .. أنت تعرف انه لا عيب فيك . العيب في موهبتي المرعبة .. ربما أتعلم السيطرة عليها وربما لا .. أنا مستمرة في دروس التلقيم الرجعي مع د. (مصطفى) وأعتقد أنني أحرز نتائج جيدة..»

« إذن هناك أمل ..»

قالت وهي تتحاشى النظر لي:

«لا تكن طفلاً مرة أخرى .. إن هذه المقامرة لا تعني أن تفقد بعض المال،



بل تعني تحولك إلى رماد متفحم ..!.. أرجو ان تنساني للأبد ... هذا كل ما استطيع قوله..»

****

لم تحدث حرائق كبرى في الفترة الباقية من الدراسة ..

هل تتحدث عن ذلك الحريق في مختبر الصوتيات ؟.. ربما كان هذا ماسًا كهربيًا يا أخي .. النار التي اشتعلت في مؤخرة الحافلة ؟.. هل رأيت من قبل حافلة تحترم نفسها لم تشتعل يومًا ؟.. دعك بالطبع من اشتعال الشجرة التي تقع تحت دارها .. ما المشكلة ؟ .. كل الحمقى يلقون أعقاب السجائر من الشرفات، وهذه تحدث كوارث لو سقطت على أوراق جافة ...

(بايروكينيزيس) ؟... إشعال الحرائق بالعقل ؟ ... كلم عن هذا واحدًا غيري ...

انتهى العام الدراسي وانتهت الكلية .. وانقطعت أخبار (غيداء) لفترة لأنها ليست من معتادات الوقوف في الشرفة كما يحدث في أفلام (شادية) القديمة، وأمي لم تكن صديقة أمها...

ثم جاء يوم الخميس الموعود حينما صحوت من نوم القيلولة لأسمع صوت الصراخ وأشم رائحة الدخان .. من جديد رحت أثب الدرجات نحو بيتها .. ما كل هذه الأضواء ؟... لا وقت للتساؤل.. كان باب الشقة مفتوحًا .. هذه المرة كان هناك كثير من الناس .. كثير من الأضواء .. صخب .. امرأة بدينة تتظاهر بأنها راقصة .. وفي وسط الزحام كانت فتاة لا أعرفها تبكي وقد ابتل شعرها بالماء، وراحت مجموعة من النسوة يهدئن من خاطرها ..

-«لا شيء .. لقد تمسك لهب الشمعة بشعرها .. لا تخافوا .. سليمة والحمدلله !»

أدرت عيني في المكان .. هناك (كوشة).. هذه (غيداء) بثوب الزفاف .. تتأبط يد .. دكتور (مصطفى) طبعًا وهما يبتسمان لي في بشاشة ورقة ..

قالت لي وهي ترى النظرة البلهاء على وجهي:

«لست أنا .. الشمعة هي السبب .. انا اليوم في قمة سعادتي !»

وفي غرفتي نظرت لوجهي الأحمق في المرآة.. هذا هو مبدأ التحويل transference الذي تكلم عنه (فرويد) كثيرًا ... لقد تعلقت عواطفها بمحللها النفسي فكان ما كان .. وقلت لنفسي إن هناك احتمالين: إما أن التلقيم الرجعي نجح فعلاً وهي تعرف أنه نجح، وإما أن الدكتور (مصطفى) يعرف أنه لن يضايقها للأبد ...

اليوم - بعد عشرين عامًا - أعتقد أنه لم يضايقها قط .. لكنه سيرتكب الخطأ يومًا ما كأي زوج يحترم نفسه وعندها ....

سأبكي كثيرًا وأنا أرمق كومة الرماد المتبقية منهما !

****

المكحلة

عندما وجدت ـ أنا الدكتور (محفوظ) ـ هذه الأوراق في حوزتي شعرت بما يشعر به طفل عندما يجد صندوقًا من الحلوى .. إنه سعيد لكنها سعادة أكبر مما يتحملها قلبه الصغير .. إنه لا يعرف من أين يبدأ .. ثم يشعر في لحظة بعينها بأنه ليس سعيدًا على الإطلاق ..

إن الأوراق في كيس بلاستيكي تم ربطه برباط مطاطي، وللكيس ذات المظهر الكئيب الذي يذكرك بأوراق تحاليل المرضى المزمنين التي يحملونها بالطريقة ذاتها .. وعلى كل طبيب أن يفك هذه الألغاز ويحاول ترتيب الأحداث بشكل منطقي ..

أما كيف وصلت هذه الأوراق لي فقصة أرجو أن تعفيني من سردها ..

لم تكن زوجتي في الدار وقتها . لابد أنها تبحث عن سيارة أجرة غير عارفة أنه (انتظار جودو الذي لن يجيء) .. لهذا سيكون عندي وقت لا بأس به لقراءة كل هذا ...

جلست في غرفة مكتبي .. أوقدت الأباجورة .. وعلى الدخان المتصاعد من كوب الشاي الساخن رحت أفتح الربطة .. وعلى الفور انتثرت الأوراق التي ظلت حبيسة كل هذه الأعوام .. بعضها اصفر عتيق يوشك على التحلل وبعضها أبيض حديث .. وكلها كانت تتنهد طربًا للخلاص .. إلا أنه بين الأوراق كان جسم معدني واحد يبدو كمكحلة جدتك إن كنت تذكر منظرها .. وأنا فضولي لكني لم أبلغ درجة حمق تجعلني أبتلع الدواء قبل قراءة النشرة المرفقة ..

لذا قررت أن أبدأ بالأوراق الحديثة وأحاول أن أصل لترتيب منطقي....

أول ورقة أمسكت بها كانت بخط أنيق وبأسلوب معاصر يقول:

****

اسمي (محمود عبد العزيز جابر).

منذ زمن سحيق وهذا الكيس في حوزتي .. لم أكن أعرف عنه الكثير سوى أنه مغلق وأن الأيدي تناقلته جيلاً بعد جيل، وأنه من الأفضل لي أن أبتعد عنه .. اليوم أنا رجل كبير ناضج وقد قررت أن أعرف ما في هذه الأوراق. كنت وحدي في تلك الأمسية وقد خرج الجميع. زوجتي تزور أمها والأطفال يلعبون عند صديق لهم في ذات البناية. لقد انتهى حفل (أم كلثوم) الشهري في المذياع منذ دقائق وعاد للبيت صمته الكئيب. وضعت الكيس على مكتبي ورحت أتفحصه.



بداخله مجموعة من الأوراق وجسم معدني يذكرني بمكحلة أمي رحمها الله ..

إنها أثر عتيق لا شك في هذا ..صنعت من معدن مطلي باللون الذهبي، فتحتها فوجدت أنها فعلاً مكحلة وإلا فما سر هذا المسحوق الأسود الناعم الذي انتثر على المنضدة أمامي ؟.. هذه مشكلة الأجسام المغلقة جيدًا والتي تنفتح فجأة .. على كل حال جمعت الرماد وأعدته لوعائه ثم أمسكت بأول ورقة ...

غريب هذا الصداع الذي يحتويني الآن .. إن رأسي يرتج كبذرة المانجو .. هل الطقس حار ؟

دعنا من هذا ولنطالع المكتوب ...

كانت رسالة .. رسالة على ورقة صفراء تقول:

****

أنا (جابر شفيق) الموظف بالحقانية. هذا الكيس القماشي في داري منذ سنين عديدة. لا أحد يعرف محتواه لهذا قررت أن أشبع فضولي وأفتحه لأعرف ما فيه. انتظرت حتى خلا البيت من أسرتي، لأن (نعمات) هانم مع الأولاد في زيارة لأبيها (حسين أفندي عبد العليم)، وقد تركتهم هناك وعدت للدار ثم وضعت على الجراموفون أسطوانة لمحمد عبد الوهاب.. وعلى صوت آهاته وضعت الكيس على مكتبي.. وقررت أن أكتب رسالة لمن يأتي بعدي ليعرف محتواه. لكني وجدت بداخله مكحلة حسنة المظهر بها مسحوق أسود انسكب على المكتب، فجمعته كيفما اتفق وأعدته إلى المكحلة.

لا أكتم القارئ سرًا أنني شعرت توعكًا مفاجئًا ونظرت إلى ظهر يدي فبدا لي كظهر يد المجدور. لكني قدرت أنها خيالات من تأثير قلة النوم لأنني لم أظفر بشيء من الطعام بعد ولم أحظ بقيلولتي اليومية.

وجدت مع المكحلة رسالة على ورق أصفر متآكل بخط جميل منمق وبيان حسن تقول:

****

نحن (شفيق بك إبراهيم مراد) نكتب هذا لمن يأتي بعدنا، ويقفو خطانا. قد وجدنا هذا الكيس الخيشي في قبو دارنا المصونة، فعجبنا أشد العجب، ودهشنا أيما دهشة، وأزمعنا أن نفتحه لنتعرف ما به من أسرار عظيمة وألغاز بهيمة. على أننا حينما عقدنا على ذلك العزم المتقشب ألفينا فيه

مكحلة حسن شكلها ودق صنعها، وكأني بصانعها من خيرة أسطوات الأستانة وصناعها. بيد أن بعض محتواها انسكب على القمطر عندما أزمعنا فتحها فأعدناه إليها كيفما اتفق، وقد وجدنا في الكيس قرطاسًا خط على ورق بال متآكل. على أننا استشعرنا سقمًا بالغًا وحمى عالية، فهرعنا نسكب من الماء البارد على رأسنا ما يكفي لإبراء هذه الحمى وتخفيف هذا السقم. وسكبنا في خيشومنا بعض قطرات من الدواء.

ثم أننا فتحنا ذلك القرطاس الذي وجدناه.

وكان كاتبه طيب الله ثراه يقول ما يلي:

****

كاتبه (مراد بك السلحدار) من أعيان القاهرة المحروسة ورجال الأمير (كتخدا خوندا طولباي) حفظه الله. أنه بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم في عامنا هذا عقدنا العزم على فتح الشكمجية التي وجدها خدمنا في الدار، وقد وجدنا قرطاساً بخط لا تتبينه العين، فاشتد عجبنا لهذا وازداد عزمنا تقشباً على استجلاء كنه هذه الشكمجية.

ولقد ألفينا مع القرطاس أداة من التي يصطنعها الصناع لتكحل بها النسوة عيونهن، ألا رحم الله جريرًا إذ قال:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

والذي هو أشعر ما قال العرب في الغزل. على أن بعض ذلك المسحوق الأسود تبعثر فوق عباءتنا فنفضناه وأعدناه إلى حيث كان ولات حين مناص. فقد شعرنا بأن السقم استبد بنا استبدادًا لكن هذا لم يفت من عزمنا المتقشب على قراءة ما خطه الخطاط على ورق القرطاس برسم قل مثيله وندر شبيهه.

بيد أننا لم نستطع فك رموز تلك الكتابة الغريبة أشد الغرابة، التي هي إلى رسوم الصبية في كتاتيبهم أقرب، وإلى تلك الشخابيط التي يرسمها العامة على جدران بيوتهم أدنى. وهي كتابة رسمت رسماً على ضرب

من تلك النباتات التي يقال لها (بردي)، والتي كان الفراعين يصطنعون الكتابة عليها اصطناعاً. لذا عقدنا العزم على أن ننسخها نسخًا حتى يعلم من ابتغى العلم فحوى ما وجدناه فيه..

****

بعد هذا وجدت أوراق بردي عليها رسوم هيروغليفية ما .. عند هذا الحد توقفت رحلتي إلى الماضي وعدت إلى الحاضر الذي يعج بالأسئلة..

لقد كانت هذه هي الرسالة الأولى . الرسالة التي بعدها تحكي الأحداث ذاتها في فترة زمنية أبعد .. وهكذا دواليك .. حتى آخر رسالة بالعربية ثم تبدأ المخطوطات الهيروغليفية.

معنى هذا أن كثيرين حاولوا فتح الكيس قبلي، منذ كان في شمكجية ثم صار كيسًا خيشيًا حتى جاء عصر اللدائن وصار الكيس بلاستيكيًا. لكن الأغرب أن أيًا منهم لم يستكمل الرسالة ليخبرنا بما وجده. هذا داع قوي كي أجرب بنفسي وليس من رأى كمن سمع.

ولكن هناك أسئلة عديدة.

لماذا لم يكمل أحدهم رسالته ؟

من وضع الرسالة في الكيس في كل مرة ؟

ما محتوى تلك البردية التي يبدو أنها باللغة الهيروغليفية؟

لماذا شعر كل واحد من هؤلاء بأنه ليس على ما يرام بعد ما انسكب المسحوق الأسود ؟

قررت أن أفتح المكحلة .. سألقي نظرة سريعة على محتواها وربما أرسله لمن يحلله، وبعد هذا سأكتب ما رأيت كي يعرف الآخرون .. إنها جامدة .. لا أعتقد أنها ستنفتح .. هوب !.. لقد انفتحت !.. يا للكارثة !.. لقد تناثر هذا المسحوق الأسود غريب الرائحة على مكتبي .. لكن لا مشكلة .. سأقوم بجمعه وإعادته إلى المكحلة...

هل حرارة الجو تتزايد ؟.. لا أظن .. لكن ما سر هذا العرق وهذه الرجفة في يدي ؟..

لا داعي للهستيريا .. إنه الانفعال لا أكثر .. سأتفحص الآن هذه المكحلة بدقة أكثر ..

.. تعالوا نلق نظرة معاً.....



هدية الأرواح

لم أثق قط في أية تجربة تحضير أرواح حضرتها في حياتي .. لقد رأيت الكثير لكن فكرة الخدعة لم تتخل عني قط، مهما كان الوسيط بارعًا .. لقد كان (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) يؤمن بتحضير الأرواح ودعا المشعوذ الأشهر (هوديني) إلى تجربة لاستحضار روح أم الأخير .. تمت التجربة وتكلمت الأم .. لكن (هوديني) لم يبتلع التجربة ... أولاً لم تكن أمه تجيد حرفًا من الإنجليزية .. ثانيًا كان اليوم عيد ميلادها فلماذا لم تلمح إلى ذلك أثناء الجلسة ؟.. هذه قصة غريبة ترينا كيف أن المشعوذ لم يصدق تجربة تحضير الأرواح، بينما صدقها المؤلف الوقور العبقري ..

إلا ان هذه الجلسات بلا شك تجربة نفسية رهيبة، قادرة على أن تزحزح بعض الحجب التي تغطي أجزاء من أرواحنا .. (يانج) العالم النفسي الشهير وجد أن خبرة تحضير الأرواح مهمة لأنها تكشف عن جزء كبير من خبراتنا المدفونة ..

****

تلك الشقة في العجوزة .. يذكرك منظر الناس الجالسين والمنضدة والإضاءة الخافتة بـ (برتيتة) القمار في الأفلام العربية القديمة .. حتى تتوقع أن يظهر (ستيفان روستي) في أية لحظة ليقول: «برافو يا إكسلنس».. لكن الأمر ليس كذلك .. ما كنت لأجلس في أي مجلس فيه قمار .. لكني بالفعل كنت شغوفًا أشد الشغف بمعرفة ما يجري في جلسات تحضير الأرواح تلك .

مدام (فريدة) .. امرأة أرستقراطية مسنة من الطراز الذي يتم إنتاجه عبر خط تجميع .. كلهن نحيلات عصبيات شعرهن أبيض كالقطن، وعلى أكتافهن شال أسود .. أما الباقون فهم الأستاذ (محيي) والدكتور (فهمي) وآنسة (ميادة).. هناك أستاذ أدب إنجليزي هو خادمكم المتواضع ..

تقول مدام (فريدة) بصوتها الرفيع المتهدج:

«الآن نبدأ.. لو كان هناك من يرغب في التهريج فليخرج الآن .. إن

النفوس الخبيثة تجذب أرواحًا خبيثة .»

ثم تأمر الخادم البلهاء فتضع أصيص أزهار قريبًا منا .. وتتجه إلى الجراموفون وتضع عليه أسطوانة.. يقال إن الأرواح تحب موسيقا (موتسارت) بشكل خاص .. هذا هو تأثير (موتسارت) الشهير ..

تقول مدام (فريدة) وهي تنظر لي بعينيها الحادتين:

-«لو كان هناك من لا يصدق فلا أطالبه بشيء إلا الاحترام !»

قلت لها وأنا أشعر برهبة مبررة:

-«صدقيني .. أنا لا أصدق لكني أرتجف خوفًا .. يصعب على الخائف أن يسخر»

إنها هيبة الرمز ... أنا لا أؤمن بحرف من الديانة الهندوسية لكني كنت أرتجف هيبة عندما دخلت أول معبد هندوسي في حياتي .. هنا يؤمن أناس ويبكون ويرتجفون ويدعون .. يمكنني ألا أصدق، لكني سأحترم المكان بكل تأكيد لأنه ملوث بإشعاعات التهيب التي تركها من سبقوني ...

مدام (فريدة) في السبعين من عمرها .. كانت مجرد امرأة أرستقراطية إلى ان توفي زوجها .. راحت تقرأ في علم الروحانيات وسافرت كثيرًا وقابلت كل من يزعم قدرته على الاتصال بالأرواح، إلى أن استطاعت أن تتصل بزوجها وحدها .. وقد خفف هذا من جزعها .. تقول إنها تشعر براحة تامة عندما تعرف أنه معها .. لن افهم النساء أبدًا .. كيف أستريح لحظة واحدة وأنا أؤمن بوجود شبح معي في كل لحظة ؟

بدأت المدام تهدي خبراتها للآخرين .. أعترف بأنها لم تطلب مليمًا ، لكن كل واحد ممن يتعاملون معها قرر أن يجلب هدية صغيرة .. وصار هذا عرفًا .. خمس هدايا ثلاثة أيام أسبوعيًا معناها ستون هدية في الشهر !...

الأستاذ (محيي) هو بطل هذه الجلسة لأنه قد فقد ابنته الشابة منذ

شهر .. حادث مروع من الطراز الذي يجيد انتقاء ضحاياه وقد انهار المسكين تمامًا برغم أنه من ذوي الأعصاب القوية ، لكن معرفة أخبار تجارب مدام (فريدة) جعلته يجد هدفًا لحياته ..

الدكتور هو معالج الفقيدة .. الآنسة صديقتها الوحيدة .. انا صديق الطبيب .. هذا كل شيء ..

ساد صمت رهيب ما عدا موسيقا الأخ (موتسارت)... ودعتنا السيدة إلى أن نتأمل مغلقي الأعين.. ثم نظرت نحو الأب المتلهف وقالت:

-«أنت أبوها .. لهذا على الأرجح سوف تترك لك Apport»

قالتها بالإنجليزية فلم نفهم .. هذه الكلمة لا وجود لها في القاموس على حد علمي .. وإن كانت قريبة من فعل فرنسي يعني (الإحضار)...

قالت مفسرة:

-«الـ Apport هي هدية الروح .. إنها تجلبها لمن تثق فيهم من الجلوس .. قد تكون شيئًا صغيرا تافهًا أو شيئًا ثمينًا .. بعض الناس يطلبون مالاً وهذا يترك أثرًا بالغ السوء لدى الروح .. أنت أبوها لذا يمكنك أن تطلب منها هدية .. لكن لتحتفظ بها في سرك ..»

كان هذا خطأ جسيمًا كما ستعرف فيما بعد...

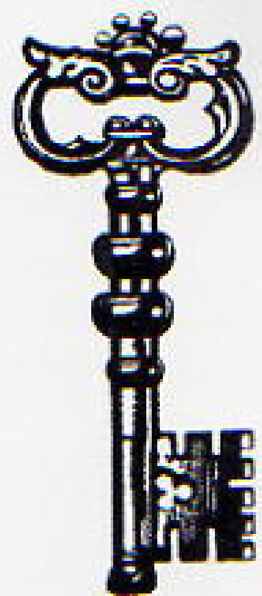
-«هل أنت معنا يا (هالة) ؟»

نعم .. هذا الشعور المفاجئ بالبرد ليس وليد الصدفة .. بعض الأرواح تحدث بردًا شديدًا عندما تصل .. بعضها يسبب الحر ..

ثم أن السيدة بدأت تتلو حروف الأبجدية بصوت رتيب وكأنها تملي رسالة شفرة:

-«أ .. ب .. ت .. ث .. ج .. ح.........»

فما أن وصلت إلى حرف النون حتى سمعنا دقة جعلتنا جميعًا نثب مترين في الهواء .. لكن السيدة (فريدة) لم تتحرك . فقط مدت يدها في



ثبات ودونت في ورقة حرف (النون).. ثم واصلت القراءة ....

«أ .. ب .. ت .. ث .. ج .. ح.........»

هنا سمعنا الدقة عند حرف العين .. يبدو كأن الصوت صدر من منضدة صغيرة جوار الباب .. يا للكارثة !. هذه أقدم طريقة لتحضير الأرواح في التاريخ .. الـ typtology كما أسماها عالم الروحانيات (آلن كاردك).. وفيها يتلو الوسيط الأبجدية كلها إلى أن تصدر الروح دقة ما، عندها يكون اختيارها هو حرف الأبجدية الأخير ..

يتم تدوين الحروف لمعرفة ما تريد الروح قوله .. طريقة معقدة أقرب إلى شفرة مورس، ويمكنك الآن تخيل كم من الوقت سوف تستغرق هذه المحادثة الأبوية .. لابد أننا سنعود لبيوتنا بعد ثلاثة أيام..!

قالت مدام (فريدة) وقد خمنت ما أفكر فيه:

«لا وجود للزمن في عالم الأرواح .. إن لديها كل الوقت .. كل الأبدية ..»

لكننا لا نملك الأبدية .. لو لم أعد للدار قبل الحادية عشرة لجعلتني زوجتي الشبح التالي ..

استغرقنا دقيقتين حتى قالت الروح (نعم .. أنا هالة)... ثم نصف ساعة حتى سألت أباها عن حاله .. وهكذا دارت محادثة الدقات هذه... فلابد أن مدام (فريدة) تلت الأبجدية خمسين مرة ..

أنت تذكر قصة الأخوات (سكوت) حين كانت الأخت الكبرى (تطرقع) أصابعها في حذائها الضخم من ثم تحدث صوت الدقات هذه .. لكني أرى أصابع قدمي المدام (فريدة) في صندلها .. لابد من تفسير ما .. أين الخادم بالمناسبة ؟؟....

لكن الأب المتحمس يرتجف تأثرًا ويقول:

«نادتني (موحا).. لا أحد يعرف هذا اللقب سواها وأمها ..!!.. ثم إنها ذكرت (مختار) الفتى الذي كان سيخطبها .. هذا سر بيني

وبينها..!!»

غطت (ميادة) وجهها وأعلنت أنها لا تستطيع البقاء أكثر .. لذا نهضت قبل أن تسمح لها المدام بذلك .. يبدو أن هذا خطأ فادح لأنها رمتها بنظرة نارية ولم تتكلم ..

بعد نصف ساعة طلبت المدام من الروح الانصراف .. وانتظرنا متوترين لدقائق .. استمر الصمت فتنهدنا الصعداء ...

نظر د. (فهمي) إلى المدام متسائلاً ثم أشعل لفافة تبغ ...فطلبت منه واحدة لنفسها .. نفثت الدخان كثيفًا ونظرت لي قائلة:

-«ما رأيك يا دكتور ؟»

هززت رأسي ولم أعد أدري ما أقول .. لقد كان هناك شيء .. لا شك في هذا .. لكن من قال إن هذه روح ؟...

قال الأب في تأثر وهو يمسك بيد السيدة:

-«لا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني .. كل ما أرجوه هو أن تسمحي بتكرار التجربة ..»

قالت في وقار:

-«طبعًا يا أستاذ (محيي).. هذا هو ما أحاول إثباته .. الروح معنا .. أحباؤنا قريبون جدًا ..»

هنا سمعنا دقة..

وثبنا جميعًا للوراء .. بينما تساءل د. (فهمي) في توتر:

-«هل الروح ما زالت هنا ؟»

اتسعت عينا المرأة بمعنى أنها لا تعرف .. ثم دوت دقة أخرى .. هذه المرة عرفنا مصدرها .. إنها من خارج الغرفة .. من الشرفة ذاتها ..

هناك من يدق باب الشرفة المغلق...

هتف الأب في حنان:

-«(هالة) !»

نظرت له السيدة في جزع وقالت:

-«عم تتكلم ؟»

-«عن هدية الأرواح ... !.. لقد جلبتها لي !»

اتسعت عيناها أكثر وهتفت:

-«ويحك ..!.. ما الذي طلبته ؟»

-«طلبت أن تعود لي ابنتي .. هذه هي الهدية الوحيدة التي أريدها !»

وثبنا جميعًا بينما صاحت السيدة (فريدة) في جنون:

-«هل جننت ؟.. أتطلب طلبًا كهذا ؟.. قلت لك أن تطلب شيئًا رمزيًا .. »

ومن وراء باب الشرفة سمعنا الصوت العميق القادم من لا مكان:

-«باباااااااا !»

جرى الرجل نحو الباب ليفتحه .. هنا صرخت المدام في هلع:

-«يا لك من مخبول !... هل تتخيل أن تراها وقد عادت لك ؟.. بعد الحادث الذي مزقها تدخل لك الآن ؟... وبعد شهر ونيف من وفاتها ؟.. لا تفتح هذا الباب !»

لكنه صاح وهو يعالج المزلاج:

-«ابنتي هي ابنتي حتى لو كانت أشلاء !»

-«باباااااااا !»

هتفت المرأة في وهن:

-«امنعاه !.. إن ساقي لا تتحملان أن .....»

ثم هوى رأسها على المنضدة .. لقد فقدت وعيها .. وهرع د. (فهمي) إليها يتحسس نبضها على حين وقفت أنا عاجزًا أرقب الأب الذي يفتح الباب الآن ..

أخيرًا باب الشرفة ينفتح ...

أنظر ما خلفه وقلبي يتواثب في صدري ..

هنا أرى (ميادة) تدخل وهي تضحك في وحشية ..

وفوجئت بالأب كذلك يضحك .. لم أره يضحك منذ زمن ..

قال لنا:

«أقدم لكما ابنتي العائدة !.. بالأحرى صديقتها (ميادة)..إن الشرفة مشتركة بين هذه الغرفة والغرفة المجاورة لها .. عرفت هذا من زيارتي السابقة ..»

قالت (ميادة):

«عندما اتفق الأستاذ (محيي) على جلسة تحضير الأرواح هذه، فوجئت بأخت مدام (فريدة) تتصل بكل صديقات (هالة) تسألهن عن أدق تفاصيل الفقيدة .. عاداتها .. الخ .. وجاء دوري في تلقي الأسئلة، لذا أدركت أن القصة كلها تتعلق بالنصب .. مدام (فريدة) تجمع كل التفاصيل عن الفقيدة لتستعملها خلال الجلسة ..»

قال الأب:

«لهذا قامت (ميادة) بتسريب أخبار لا صحة لها .. لا يوجد من يدعى (مختار).. هل تتصور أن يدللوني أنا الرجل المحترم باسم (موحا) ؟.. ابتلعت (فريدة) الطعم واستعملت هذه المعلومات المغلوطة على لسان الروح ..»

قالت (ميادة) ضاحكة:

«اتفقنا – لو تأكدنا من أن المرأة نصابة _ على أن أغادر الغرفة ثم ألعب هذه اللعبة المرعبة .. كانت قد أعدت كراسًا قديمًا من كراريس (هالة) وأخفته في الحجرة ليكون هدية الأب .. لكنها لم تتوقع أن يتمنى شيئًا مخيفًا كهذا .. هي وحدها كانت تعرف أنها نصابة، لذا أصابها الهلع عندما سمعت صوتي خلف باب الشرفة»

جلست على مقعد ألتقط أنفاسي وسألت:

«وصوت الدقات؟»

«سيناريو مرتب بعناية مع الخادم .. إنها في غرفة مجاورة تسمع الأحرف ثم تدق. والجدار خادع يوحي بأن الصوت من داخل الغرفة .. .. لقد وجدت الأرملة العجوز طريقة لا بأس بها لكسب الرزق .. كل من يزورها يجلب هدية معه وهكذا تحصل على نحو أربعين هدية كل شهر .. ليس هذا أجرًا ضئيلاً ..»

قال الأب في صرامة:

«برغم أنني تمنيت أن تكون روح ابنتي قريبة، فإنني أكره أن يسخر مني أحد أو يتلاعب بمشاعري كأب .. لهذا أعددت هذا الانتقام وأنا واثق من أن (هالة) راضية عما قمت به .. هذه المرأة لن تخدع أحدًا ثانية ..»

هنا قال د. (فهمي) في أسى حيث وقف جوار العجوز المنكفئة على المنضدة:

«لن تخدع أحدًا أبدًا !!»

ونظرنا له في رعب .. فكانت الإجابة واضحة .. القلب العجوز لم يتحمل هذه الدعابة الثقيلة .. أما عن هذا الصوت فهو خشب الأرضية ... لا تقل لي من فضلك أنها دقات جديدة .. لا تقل لي إن مدام (فريدة) ترسل لنا الآن رسالتها الأخيرة.

****

